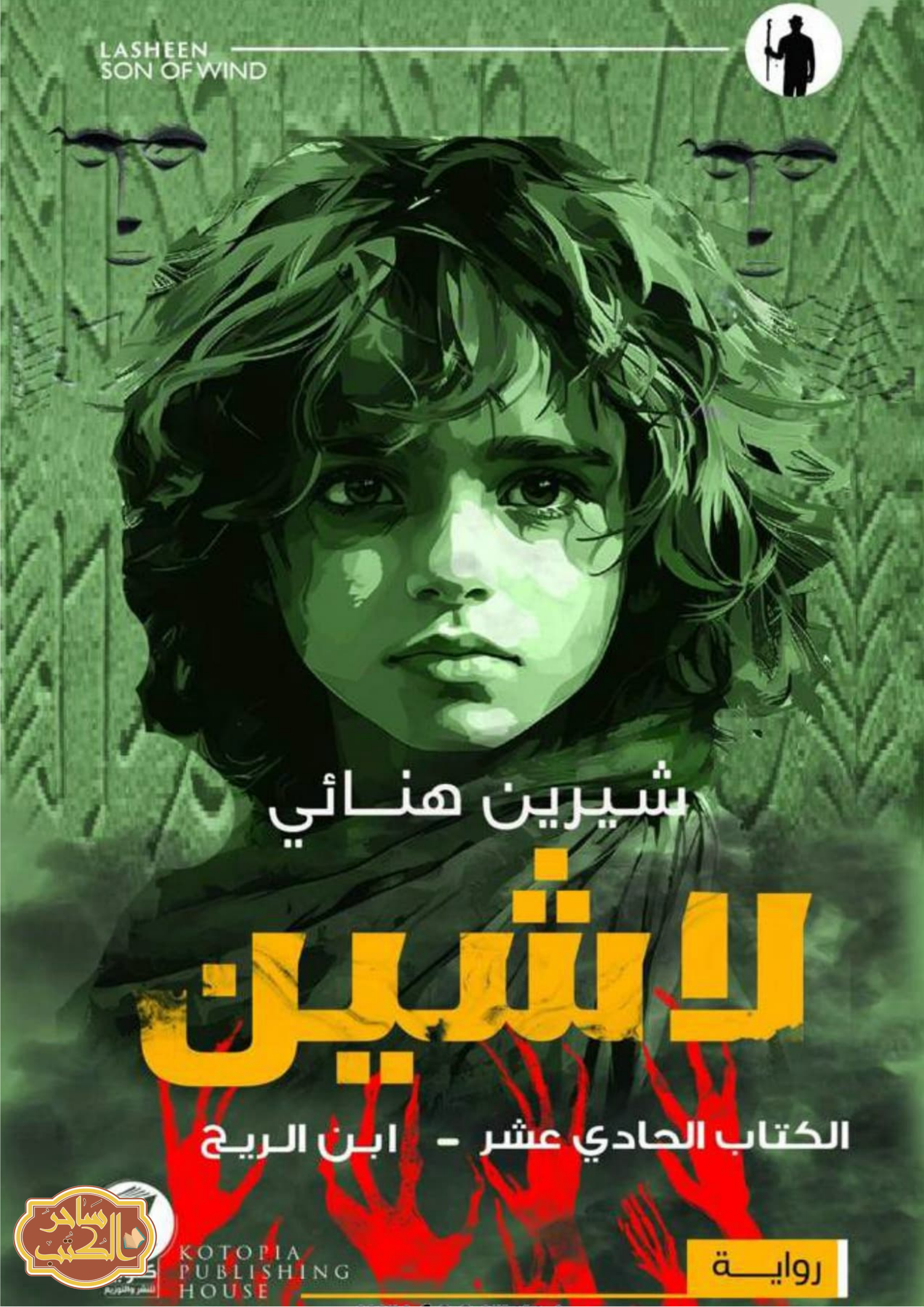

LASHEEN
SON OF WIND
شيرين هنـــائي
لاشين
الكتاب الحادي عشر - ابن الريح
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
روايـــة

لاشين-الكتاب الحادي عشر

ابن الريح

شيرين هنائي

كتوبيا للنشر والتوزيع

إلى الأعزاء:

م. أيمن حويرة ونهى عودة.. لكما الفضل الأكبر بعد الله سبحانه وتعالى. أشكركما.

ا. عمرو يسري.. البداية كانت من أوديوهات العزيزة.. شكرًا لك ولها.

الفنان الدكتور محمد خميس.. إيمانك بالشخصية، وأداؤك لها أضافا لها الكثير.

إلى زوجي.. صديقي..شريكي..

أحبك.

شكر خاص:

لجامعة برشلونة، ولمركز جوزيف بانكس راين، وللجمعية الروحانية البريطانية على جهودهم المستمرة في التعليم ونشر المعرفة.

السيد إد وارن وزوجته السيدة لورين وارن.

الدكتور محمد أحمد خالد توفيق.

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوَّل عليه، سواء كان من عائلة الدجّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أُدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلٍ بشريٍ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

***

الفصل الأول

-١-

يقطع حسن شوارع مدينة المحلّة على دراجته، يقودها واقفًا دائمًا، يلتفت إلى ما وراء كتفه من حين لآخر ليتبين المحيط حوله إذ لا يسمع شيئًا من سماعتي الأذنين اللتين لا يخلعهما مؤخرًا إلا نادرًا.

توفيت الجدة الطيبة بعد وفاة عمر حفيد سهير بأسبوع ونصف، ومكث حسن مع أقربائه يومين سمع فيهما ما لا يسُر. سمع عن جنونه، عن تعامله مع الشياطين، عن فشله الدراسي، عن مصاريفه التي لن تسددها ما تركت الجدة من مال قليل، عن ضرورة ترك الدراسة والبحث عن عمل، عن الوصاية على ميراثه من جدته، عن...

أوقف الدراجة مائلة على جدار منزل عمارة باشا قابيل، ونظر إلى ساعته، الرابعة عصرًا. سرعان ما لمح سيارة أجرة تقف على جانب الطريق، ينزل مهاب منها وقد شاب أغلب شعر رأسه وهو لم يكمل الأربعين بعد، وغارت التجعيدات على جانبي عينيه أكثر في بشرته.

جذب حسن سلك السماعتين واندفع نحوه ومد يده يسلم عليه في حرارة، فعانقه مهاب عناقًا رجوليًا يحتشد بالضحكات المكسورة والربتات العنيفة على الظهر.

- أبا علي، كيف حالك؟ لم أرك منذ العزاء. ألم نتفق أن تأتي لتبيت معي أيامًا قبل بدء الدراسة؟

- اتفقنا، لكني وجدت عملًا هنا.. في إصلاح الهواتف المحمولة.

- والمدرسة يا حسن؟

صمت حسن، فعقد مهاب حاجبيه وقال بجدية:

- نحن في بداية أكتوبر والدراسة بدأت منذ..

- أعرف. ماذا بعد؟ سأنهي الثانوية العامة، ثم؟ سألتحق بالجامعة؟ ستدفع مصاريفي؟ ستتكفل بي وأنا قادر على العمل؟ مستحيل.

- حسن، لن أخبرك للمرة الألف أنك أخي، ولو كان عمرو.. لو كان حيًا هل كنت سأتركه يعمل ويترك الدراسة؟ اعمل كما تشاء في الإجازة. لنرَ الأمر الذي اتصلت بي بشأنه، ثم نناقش خطة عودتك إلى المدرسة. لا جدال هنا.

نزل مهاب الدرجتين إلى باب قبو البناية، فتح القفل الضخم، ثم أدار المفتاح في القفل ودفع الباب. دخل وخلفه حسن وقد دسَّ السماعتين في أذنيه مرة أخرى.

على اليسار فراش صغير يتمدد عليه شاب يرتدي بنطالًا وقميصًا قطنيين، ويخفي وجهه خلف مجلة «ميكي»، ويهتز صدره ضحكًا. جواره على مقعد بلاستيكي تلال من مجلات الأطفال وروايات المكتبة الخضراء، وعشر كتيبات تحمل اسمي –أنا لاشين- جوارهم كيس حلوى.

صاح مهاب بصوت مهر الذي يختزنه لهذه المواقف فقط:

- جبر.

أنزل جبر المجلة التي تخفي وجهه وابتسامته الواسعة في وجهه

الأسمر الملتحي، ورفع حاجبيه هاتفًا:

- مهاب! انظر مَن معك، حشّونة! ألن تسلِّم على عمو جبر؟

تجاهله حسن وراح يجوِّل في أرجاء القبو محترق الحوائط حتى وصل إلى الحمام الصغير الذي ركَّبه مهاب في ركن المكان وأحاطه بستار، فراح يغسل وجهه بالماء.

- جبر.. انظر لي. ماذا تريد؟

- أريد الغداء! أشم رائحة لوبيا.. أم أنها فاصوليا؟ طهي والدتك شهي جدًا.

- لماذا تزور أحلام حسن؟

- أريد أن أراكما لا أكثر.

وضحك ضحكة أصفى من ضحكات الأطفال. جلس مهاب على طرف الفراش ونظر إلى عيني جبر في برود وصمت. حيلة تعلّمها من ذكريات مِهر.. لن يتكلّم الشيطان لو حاورته. اسأل سؤالك واصمت.

- هناك شيطان يتحرك في مكان بعيد عن هنا.

لم يبدُ على وجه مهاب أي تغيير، فأردف جبر:

- أعرف أن شيطان الرعب رحل، لكن هزيمته ستشجّع شياطين أخرى على المحاولة. لم ينغلق باب عالم الظلمات الذي فتحه جدك قط، سواء في وجود لاشين أو عدم وجوده. لقد تغيَّر العالم يا صديقي، بدليل أنني هنا!

- من الشيطان الذي يتحرك وفي أي مكان وما غرضه؟

- الغداء أولًا.

ثم قال بصوت أعلى:

- ندوب الشجاعة هذه يا حسن تقلقني..

التفت حسن إليه رغمًا عنه، فابتسم جبر وقد كشف أن الشاب يسمعهما ويتظاهر بالعكس.

- أرى من تحت طرف بنطالك آثار حروق، وتشهد عظامك على اللكمات التي تلقيتها من وريث ريا وسكينة هذا.. ندبات الشجاعة تقلِّص الزمن المتبقي لنا معًا يا حسن. سرعان ما ستصير رجلًا، ولن يكون عمو جبر سوى جبر لا أكثر..

قال مهاب بصوت حاول السيطرة على غضبه:

- حسن.. لا تنصت. لقد اتفقنا.

ضغط حسن زر تشغيل الوسائط الصوتية على هاتفه ورفع رأسه ينظر إلى السقف المسوَّد.

- الشيطان يا جبر. أين، من، ماذا يريد؟

- أريد هاتفًا محمولًا. أريد أن أذيع «بودكاست» عن قصص الأطفال. لا بد أن أفعل شيئًا يا مهاب، لن أظل ممدًا هكذا كالمرأة الحامل! حتى حسن يريد أن يعمل..

صمت مهاب مرة أخرى واستمر بالتحديق إلى عيني جبر

السوداوين. لم يسأله عن كيفيه معرفته بعمل حسن، فالتلصص على عقل الشاب المراهق من صميم «شيطنته».

- النَّوَر..

- مَن؟

- الصُّوم..

- فسِّر.

- الغجريا مهاب. هذا ما سمعت من همسات الأطفال هناك، أطفال الغجر. الشيطان هناك حيث وادي رَم المهيب، يكتسب قوته تدريجيًا..

أخرج مهاب هاتفه المحمول سريعًا وبحث عن وادي رَم..

-٢-

لن أتلصص على ما تفعله سهير الآن بعد رحيل أسامة إلى دسوق حيث يقيم مع قريبه محمد الصاوي. لن تتلصص شياطيني.. لن أتصل.. لن أفعل أي شيء..

كفاها ما حدث بسببي.

على مكتبي محتويات حقيبة مهدي أبركان التي أعطانيها الحاج مدحت بعدما زرته في صالون الحلاقة، فمنحني حلاقة مجانية وقناع تنظيف بشرة أسود سلخ وجهي، وعانت شياطيني في علاجه وقد شعرت بالمهانة. شياطين تعالج ساحرًا من قناع تنظيف بشرة؟

لن أرى الرجل الطيب ذا العينين الخضراوين والسنين الأماميين الضخمين مرة أخرى على الأرجح، رغم رغبتي القوية في أن أندس في بيته تحت اللحاف القطني الثقيل وأنام حتى يوم القيامة على صوت الغسالة القديمة وموقد الكيروسين.

لا أعرف لماذا لم يظهر مهدي مرة أخرى، ولا أعرف مدى الضرر الذي أصابه من أوهام إلفام، لكن لا بأس.. ما أراه أمامي على المكتب يدير رأسي كفاية حتى لم يعد هناك ما أرغب في التفكير فيه.. سوى سهير طبعًا.

أمامي طوق مرصع بالأشواك، وحزام عجيب على طوله جواهر ضخمة وتتدلى منه سلاسل ذهبية ويتوسطها ما يشبه البوصلة.. أحد أحزمة ديهيا التي تمكنها من اختراق الزمان والمكان، وبناء

وفك الرَّصَد. هناك العديد من الخناجر الفضية، وبندقية مزخرفة، وخنجر مزدوج لا أعرف كيفية استخدامه بالضبط، وخرائط جلدية، وزجاجات مولتوف لكن رائحتها مختلفة، وكتيب بلغة الأمازيغ. لا بأس..

أخلاقيًا، أنا لم أسرقها من مهدي مباشرة، لقد وجدها الحاجُّ مدحت وأعطاها لي. أما في عالمنا الحالك، فالسحرة يسطون على بعضهم البعض طيلة الوقت، مهدي نفسه ساعدني في السطو على ساحر عراقي لسرقة كتاب البُلهان الذي نصبت عليَّ سهير واستولت عليه بعدها..

صارت سهير متغلغلة في أعماق ذكرياتي السحرية الشيطانية، حتى أنني لن أجد ما أفكر فيه دون الاصطدام بها.

أتمدد على الأريكة.. أقرأ.. أفتش حقيبة مهدي.. آكل.. أصلي.. لا شيء..

حياة خاوية من دون هدف أطارده.

هل نسيت ثأري مع الشيطان نفسه؟ لم أنسَ.. لكنني فاقد الشغف.

يرن هاتفي برقم مهاب. أرد على الفور وأخفي اللهفة في صوتي الخشن الجهوري:

- مهاب.

- لاشين. كيف حالك الآن؟

- أفضل. وأنت؟

- أحتاج إلى صبغ شعري لا أكثر.

- أوصيك إذًا بصالون الحاجّ مدحت زاهر في طنطا!

أضحك، فتضحك شياطيني. لقد شيَّب لقاء شيطان الرعب شعر مهاب حرفيًا، لكنه أثبت مرارًا أنه أشجع مما يتصور أي شخص.

- أقول لك.. ربما نحتاج إلى السفر إلى الأردن.

- سياحة؟

- صيد.

- أنا وأنت؟

- وجبر.. وحسن.

في نهاية مغامرة ناجورو، عاد جبر إلى جسده البشري وخطف حسن أثناء هربه مني(1)، وعاد به إلى بيت المراهق ليختبئ هناك باعتباره صديقًا لحسن في ورطة. بعد أسابيع قليلة، استطاع مهاب إقناعه بالعيش في قبو منزله لما يشكله من خطر على رفقه حسن المستمرة. نعلم جميعًا –أيها القراء- أن علاقتنا بجبر علاقة مصلحة، هو يحتاجنا ولن يهرب، ونحن نحتاجه لما يعرفه من دقائق عالم الظلمات، فلن نقتله في ضعفه.

أسال مهاب:

- لماذا حسن؟

- شرط جبر ليساعدنا. يقول أنه لن يأمن على نفسه في وجودك

إلا إن كان هناك طفل يلوي ذراعنا به. لم يقل هذا بالحرف طبعًا، لكن المعنى واضح.

- ودراسة حسن؟

- أعرف أنه لن يعود لها بسهولة. الأمر معقَّد. الفتى لا يسمع الأغاني ولا الكتب الصوتية كباقي الشباب. اكتشفت أنه لا يسمع سوى تسجيلات عمرو الصوتية له عبر واتساب. حسن يحتاج إلى علاج نفسي، لكن كما ترى.. حياتنا لا تستقر إلا لبضع أسابيع.

- وسهير؟

لا أعرف من سأل مهاب، أنا أم شياطيني، لكنه أجاب:

- بخير. تعيش مع رانيا ورجاء في شقة طنطا، ويبدو أن شريف غاضب لسبب ما ويقيم لدى أحد أصدقائه منذ الانفصال.

هززت رأسي كأنه سيراني، ثم قلت:

- لن يستطيع حسن السفر من دون جواز سفر، ومن دون علم الوصي عليه لن يستطيع استخراج واحد. أما جبر، فليس له أوراق إثبات شخصية من الأساس، وقدراته الشيطانية محدودة للغاية في هذا الجسد البشري.

- ماذا تقترح؟

- نسافر بَرًا..

قلتها وأنا أنظر إلى حزام ديهيا على المكتب.

-٣-

يقود مهاب سيارتي في المسافات بين نقاط التفتيش على الطريق، ثم أقودها أنا ونحن نعبر هذه النقاط متخفين تحت رَصَد حزام ديهيا\ مهدي. بينما يقود مهاب السيارة، أفتح الرسالة الأخيرة بيني وبين سهير وأراجع حوارنا البارد المقتضب.

- «مساء الخير. ثمة شيطان في الأردن. هل تريدين المجيء؟ سيكون معنا جبر ومهاب وحسن.»

- «لماذا حسن؟»

- «شرط جبر. يمكنني إخبارك بالمزيد عن الأمر لو رغبتِ في المجيء.»

- «لا»

- «هل تعرفين أحدًا في الأردن يساعدنا في معرفة البلد وطباع الغَجَر هناك؟ لا نريد لفت النظر بتصرفات عشوائية.»

- «أعرف صديقة. كاتبة. سأستأذنها في الأمر ثم سأرسل رقمها لمهاب.»

هكذا عرفت أنها لا تريد التواصل معي. ربما أجابت أول رسالة مني لتسأل عن سبب سفر حسن معنا. أنا أيضًا لا أريد التواصل معها.. أم أقول: لا يصح أن أتواصل معها لكني أريد ذلك من كل قلبي؟

أزالت سهير صورتها عن حسابها في تطبيق واتساب، وأغلقت

حسابها على فيسبوك، وأخبرني مهاب أنها لن تُسجل حلقات للموسم الجديد من برنامج بعد منتصف الليل.

قُضي الأمر إذًا.

يقرأ جبر كُتيبات رجل المستحيل متربعًا على الأريكة الخلفية، يلكز حسن كل دقيقة ليقرأ له عبارة من الرواية.

- حسن.. يذكر الكاتب أن أدهم صبري يضرب الأعداء بأطرافه الأربع في وقت واحد. حاولت كثيرًا تقليده لكن عمودي الفقري لم يغفر لي المحاولات. ما رأيك أن نجرب سويًا؟ أحب هذه الشخصية الخارقة..

ينظر له حسن بجانب عينه، ثم ينظر عبر النافذة إلى الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية قبل وبعد خليج العَقَبة. كآبة ووحشة داخلية امتدت إلى الخارج وافترشت الآفاق حتى عبرنا تحت الرَّصد البوابة البيضاء التي يرفرف فوقها العلم، ومكتوب عليها: أهلا وسهلًا بكم في الأردن.

***

-٤-

أصرَّت صديقة سهير، الكاتبة الأردنية/الفلسطينية/المصرية لينا النابلسي على أن تحجز لنا في فندقًا في البتراء، وقد كانت تتابع كتبي وتعرف وضعنا الخاص الغريب، لكنها غفلت عن حقيقة أننا دخلنا بلدها دون أوراق، وأن معنا شيطان بلا إثبات شخصية.

قابلناها في مطعم هناك وأصرَّت –مرة أخرى- على أن تدعونا فيه على الغداء، وفوجئت أنها كائن هش، منطلق، مُتقبِّل لوجودي ولوجود جبر وكل ما ذكرت في كتبي واعتبره القراء خيالًا. قالت لنا عبر صحفة ضخمة من المَنسَف:

- أعرف –ومتأكدة- أن العالم ليس كما نراه أو نعتقده. أقرأ مذكراتك التي أعادت صياغتها صديقتي شيرين هنائي، وأعرف جيدًا أنك لم تكذب في شيء قلته فيما يخص عالم الماورائيات.

قال مهاب وهو يملأ ملعقته بالأرز واللحم ويغالب رغبة في أن يأكل بيديه:

- من أين لك بهذا اليقين؟

نظرت عبر النافذة فأضاءت الشمس وجهها وحجابها الأبيض فبدت شبحًا أكثر منها إنسانًا وقالت:

- رأيت أكثر مما تظنون.

ثم عادت لها بغتة طبيعتها المشاكسة الساخرة وقالت لجبر:

- عمو جبر.. اترك الروايات وأنت تأكل! اسمع كلام الخالة لينا.

نظر لها وهو يحشر شطيرة المسخَّن في فمه وابتسم ابتسامة بلهاء لم أعرف معناها. قال حسن وهو شارد في طبقه لا يأكل:

- هل تعرفين أين نجد النَّور هؤلاء؟

- أعرف بالطبع كما يعرف أي مواطن أردني. يكفي أن تقف في إشارة مرور في أي منطقة راقية لتجدهم بالعشرات ينبتون من تحت الأرض، يطالبون بصدقة أو يبيعون لك شيئًا لا تريده.. أو يسرقونك لو كنت غريبًا.

أضفت أنا بعدما ابتلعت اللحم الطري الغارق في شيء شهي يُدعى «جميد»:

- أي ريفي من مصر يعرف الغجر والنَّور الذين يدورون على الأراضي الزراعي يسرقون ما تصل إليهم أيديهم منها. كنت أرى نساءهم في أرض أبي الزراعية، يرتدين ملابس ملونة ويغطين وجوههن ويجمعن الأخشاب والأعشاب الجافة والثمار المتساقطة على الأرض. أحيانًا كن يستأذنَّ أنيس أخي، وأحيانًا يتسللن. في مراهقتي خلب لُبي أعينهن الملونة الحادة.

قالت لينا:

- هذا سبب تسميتهم بالنَّوَر، جمال نسائهم الأخَّاذ كالنور. لكنهن لسن جميلات فقط، بل ذكيات.. ماكرات.. خطرات.. المجتمع الغجري نفسه يعتمد عليهن في العمل والإنجاب، وتصل بعض نسائهم إلى

مجلس وجهاء العشيرة. أحيانًا ما يُخيَّل لي أنه مجتمع يقدس المرأة ويخشاها إلى درجة الكراهية والازدراء!

سأل حسن في اهتمام، وشعرت شياطيني بتدفق هرموني يشي بأمل أحمق في مغامرة عاطفية:

- من أين هم في الأساس؟ استنتجت من كلامكم أنهم منتشرون في بلاد كثيرة.

أجاب جبر:

- بل في العالم كله.. كله.. جنس غريب كأنه نبت.. نبت شيطاني!

يضحك جبر، فتقول لينا:

- تعبير موفَّق. لا يوجد تأكيد عن أصل الغجر. يُقال أن أصلهم هجرات بشرية من الهند..

قاطعها جبر:

- ويدَّعون أنهم عرب ينتسبون إلى بني جسَّاس بن مُرة الذين تشتتوا في الأرض من بعد حرب البسوس، وأنهم ملعونون بلعنة جسَّاس على قومه بالشتات.

قال لينا:

- لكن هذه الحرب ونتائجها لم تثبت علميًا وتاريخيًا. أنا شخصيًا أميل إلى أنهم من هجرات من الهند خاصة مع تشابه عاداتهم وملامحهم في كل أنحاء العالم. هل تعرفون أن الأمر معقد إلى درجة

وجود علم الغجريات « چيبسولوچي»؟

- وأنا أميل كل الميل إلى القصص والحواديت.

لم تجفل لينا رغم جلوسها أمام شيطانين. أتفهَّم الآن سر تقديس بعض الجماعات القديمة للنساء وخوفهم منهن في آن. غريب هذا الأمر ويدعو للتأمل. أردف جبر وهو ينظف أسنانه بعود خشبي، وتلمع عيناه الحالكتان بنشوة مقيتة:

- تقول حكاية الغجري الأول أن البشر من نسل ثلاث رجال، واحد أسود البشرة ومنه جاءت الشعوب السوداء، وواحد أبيض من نسله بيض البشرة، والثالث ويُدعى «كين» الذي قتل أخاه وعلى إثر هذه الجريمة غضبت الآلهة وعاقبت نسله وذريته بالشتات.

قال مهاب:

- كين، أو قايين، أو قابيل.. الأخ الذي قتل أخاه في كل الأديان السماوية.

- لقد ظلوا منبوذين في كل مكان حتى أن هناك مزاعم أن مَن صنع الصليب الذي صُلب عليه عيسى الناصري غجري! هذا طبعكم أيها الآدميون، ما أن تكرهوا فئة حتى تشيطنوها. هل تودُّون سماع قصة أخرى عنهم من «عمو» جبر؟

تشاغلنا بالنظر إلى السقف، لكنه أضاف على أي حال:

- يُقال أن أصل الغجر فئة أثينجانوي، وهي طائفة فارسية من السحرة والعرافين هاجرت إلى اليونان في القرن الثامن الميلادي. ألا

تحبون قصص الرعب؟ ما رأيك يا لينا الصغيرة؟ أنتِ كاتبة وتحبين القصص.

لم تزد لينا، وسألتني:

- هل لديك خطة لبداية البحث؟ أنا معكم عمومًا فيما تريدون.

انتهينا من الغداء ثم الكنافة الغارقة في الجُبن والفستق، ثم الشاي بالحليب الذي تحبه لينا كما تحبه سهير، لكنه كان يحوي بعض التوابل التي لم أميزها في أثناء تفكيري في الخطة.

لن أقبل بالطبع أن تدفع لنا الآنسة لينا إقامتنا ولو من باب كرم الضيافة، ويمكنني التصرف بالتأكيد في إقامة لنا في أي مكان، لن يُعجزني هذا، لكن لماذا نقيم في مكان بعيد منفصل عن مكان المشكلة؟ كيف سنراقب ما يحدث وننجز الأمر في أقصر وقت؟

لا مفر من الإقامة في سيارتي أغلب الوقت تحت حماية حزام الرَّصد، واستخدام حمَّامات الأماكن العامة في النظافة وال.. الأغراض الأخرى. أعرف أن هذا صعب، لكن من قال أننا مسافرون لحضور مؤتمر علمي؟!

بعد الغداء، ورغم ثقل حركتنا ورغبتنا في النوم، قادتنا لينا إلى مخيم الغجر المقصود.

***

-٥-

قطعنا الطريق بسيارتي، ولينا تتقدمنا في سيارتها حتى وصلنا إلى ما يُسمى «مضارب الغجر»، أو ما أشارت إليه لينا بـ«خرابيش الغجر»، وخرابيش هنا تكافئ كلمة «عشش» في اللهجة المصرية.

الوقت قرب المغرب، ربما يفصلنا عن الغروب نحو ساعة أو أقل. جهَّزت بطاقات الصحافة المزورة التي كنا نستخدمها أنا وسهير من قبل، وتقدَّمت الرَّكب مع لينا، وخلفي حسن يحمل مُسجَّلًا صوتيًّا، ومهاب يمسك مايكروفون مطبوع عليه شعار القناة الحادية عشرة المصرية، وهو شعار من ابتكاري بالطبع، أما جبر فيحمل كاميرا الفيديو التي سنوهمهم بها أننا إعلاميون.

الرائحة بشعة.. بشعة حقًّا! المكان مفتوح ومتسع لكني لم أشم مثل هذه الرائحة قط. ربما هي رائحة طبخ وفضلات بشرية ودخان وقمامة وبلاستيك وخمر رخيص وأدوية وقيء مختلطة ببعضها، لكن أنفي وشياطيني لم يميزوا الرائحة التي يتسبب فيها الشياطين لإخافة البشر، رائحة الكبريت.

العشش أو «الخرابيش» عبارة عن خيام من أجولة البلاستيك المخيطة إلى بعضها، مع قطع قماشية ملونة من بقايا أغطية صوفية. تهمس لي لينا:

- لا تستخدم كلمة الغجر أو النَّور معهم، فهم يعتبرونها إهانة. يطلقون على أنفسهم «الضوم» بمعنى الرجال. بعض الغجر الآخرين يطلقون على أنفسهم «الرومن».

نظرت حولي لأجد عشرات الأطفال يرتدون ملابس منزلية باعتبارها صالحة للتجول في الشوارع. بعض النساء يرتدين جلابيب مزركشة ملونة، وبعضهن يرتدين عباءات رخيصة نألفها في مصر، أما الرجال فملابسهم أقرب لملابس المدنيين العادية وإن كانت أكثر قدمًا واهتراءً. الجميع يتحدثون بصوت عال كأنهم صُم، لكني أكاد لا أميز مما يقولون حرفًا. نظرت نحو لينا مرة أخرى فقالت:

- هذه لغة «الضوم واري» وهي مزيج من الأردية وغيرها من اللغات الشرقية. لا أتذكر التوليفة بدقة، لكنهم يفهمون اللهجات العربية، تحدث فقط بلهجة محايدة وإن استعصى على فهمهم مصطلح مصري سأساعدك.

اقتربت لينا من إحدى النساء المُنكبّة على فرز جوال قمامة، وتجنيب البلاستيك والصفيح في كومتين منفصلتين. عرّفتها بنا على أننا إعلاميون مصريون، فأبرزت بطاقة الصحافة لتراها. نظرَت إليها لحظة دون اكتراث، ثم نظرت إلى لينا التي أكدت لها أن اللقاء التليفزيوني بهدف إيصال معاناتهم إلى الأمم المتحدة لتساعدهم كما ساعدت الضوم في إربد وهيّأت لهم معسكرًا متمدنًا ومدرسة ومستشفى. صاحت المرأة بكلمات وهي تولي وجهها شطر عمق المخيم، فصاح طفل آخر مكررًا كلمة «جادچي» التي عرفت من لينا أنها تعني «القاعدين» وتُطلق على كل من ليسوا غجر باعتبارهم لا يرتحلون مثلهم.

جاء من أقصى المخيم رجل نحيل يرتدي بنطالًا رياضيًا أحمر

قديمًا ذا خطين أبيضين جانبيين، وفوقه بول أوفر أسود يحمل شعارًا ممزقًا لشركة أمن خاصة.

تكلّم لهجة أردنية فهمتها تمامًا، فنقلت له لينا ما قلت باللهجة المصرية ثم أضافت:

- نريد أن نصور معكم لقاءً للقناة الحادية عشرة المصرية، وسيُنشر بعضه في جريدة المواطن.

أبرزتُ له مرة أخرى البطاقة، فحدَّق إليها وهو يمسك طرفها بأظفاره الطويلة المسودَّة وقال في ترحيب متحفظ:

- مرحبًا بكم. ماذا تريد أن تعرف؟

أشرت لمهاب كي يتقدَّم ويقوم بدوره كإعلامي، وتصورت للحظة أنه سيصيح: «مستمعينا المرعبين والمرتعبين» كما كان يفعل في برنامجه، لكنه قال بثقة:

- أنا الإعلامي مهاب قابيل، نريد أن نعرف اسمك ومهنتك كبداية.

- اسمي محظوظ..

كتم جبر ضحكة إذ تذكَّر شخصية محظوظ من شخصيات مجلة ميكي، فسددت نحوه نظرة أخرسته.

- .. عمري ثلاثة وثلاثون عامًا. أعمل في جمع وفرز القمامة. هذه امرأتي ولدي ستة أبناء آخرين.

- ما المشاكل التي تواجه الغ.. الضوم في الأردن بشكل عام؟

تحدث الرجل وهو يجول وسط الخرابيش ونحن خلفه، ويشير إلى الماء الآسن في الأطباق البلاستيكية العملاقة والحشرات تغطي كل شيء كغلالة متحركة لا تكف عن الأزيز. أمام كل خيمة أطفال يلعبون أو رجال يسنُّون السكاكين أو نساء يغسلن ملابس متسخة في ماء أشد اتساخًا. تركت مهاب مع الرجل وجبر، وسرت أنا ولينا وحسن نحاول التركيز أكثر على مهمتنا أو ما قد يشير إلى وجود نشاط شيطاني في المكان.

وجود لينا وشكلها الهادئ الرزين، وأناقتها الشديدة -هل ما تحمله في يدها حقيبة جوتشي أصلية؟!- أكسبتنا هيبة ومصداقية، وكأنها هي الأمم المتحدة وقد تجسدت على هيئة امرأة. لم يضايقنا أحد وإن لم يتركنا الأطفال لحظة، يراقبون بأعين مسمومة خطرة ووجوه بريئة عابثة.

وكزني حسن وهو ينظر من خلف عدسة الكاميرا التي علقها حول رقبته إلى طفل يتمدد فوق سطح إحدى الخيام، لا يزيد عمره عن ثمان سنوات، شعره طويل يصل إلى فكيه، أشعث، له نظره حالمه شاردة، ينظر إلينا وكأنه ينظر عبرنا. أشار له حسن بيده، فأشار الولد. صاحت لينا:

- نحن صحافيون. نريد أن نكتب عنكم. هل تريد أن تحكي لنا شيئًا؟

لم يبد أن الطفل سمعها، لكنه نزل عن سطح الخيمة وانطلق يعدو مبتعدًا إلى خارج المخيم.

تتبعه حسن بعدسة التقريب الخاصة بالكاميرا، راقبت تعبير وجهه لأستنتج ما يرى، فرأيته يجفل وهو يبعد وجهه عن شاشة الكاميرا، ثم يعيد عرض ما سُجِّل لأرى معه ما أفزعه، تتبعت الكاميرا الطفل حتى دخل إلى ما وراء خيمة، وخرج من الجهة الأخرى قرد صغير يعدو إلى الظلام حتى اختفى.

***

-٦-

نمنا في السيارة داخل الرَّصد الذي أقمته في أقرب نقطة للمخيم.

كنا قد رحلنا بعدما ودَّعنا من تعرفنا بهم من الغجر على وعد بزيارة أخرى، وعادت لينا إلى بيتها، بينما مكثنا نحن في مطعم قريب ملحق بفندق، تناولنا العشاء، وأوصدنا باب دورة المياه الواسعة علينا واغتسلنا أمام صف الأحواض المعلقة على الحائط. لا حل سوى هذا. أعرف أنه تصرف مريب، لكن لا يوجد قانون يمنع الناس من الاغتسال بملابسهم في الحمامات العامة.

قرب الفجر، عدنا بسيارتي تحت الرَّصد إلى المخيم وأوقفناها قرب تل ملابس ممزقة جمعوها من القمامة لغرض نسج أبسطة يدوية. المخيم هادئ تمامًا إلا من أصوات همهمات. يمكننا التجول في نطاق ضيق لأنني لو وسعت نطاق الرَّصد لاختفت أجزاء كاملة من المخيم عن الناظرين ولانكشف أمرنا. التفت نحو جبر الذي يدفن وجهه في رواية الأمير الصغير لأنطوان دي سانت إيكسبيري وقلت له:

- عمَّ نبحث بالضبط؟! أقسم بالله لو أن ما فعلت معنا مقلب..

قاطعني دون أن ينظر إليَّ:

- يا له من كوكب غريب! كوكب جاف تمامًا، وعر تمامًا، مالح تمامًا! سكانه يفتقرون للخيال، فهم يكررون ما يقال لهم.

- دعك من التفلسف!

- لا أتفلسف! كاتب هذه الرواية هو الذي يتفلسف. على العموم،

سكان هذا الكوكب يفتقرون للخيال فعلًا، ويمكنني أن أقتبس جملة أخرى من الرواية فأجيبك: لا نبصر جيدًا إلا بالقلب، والشيء المهم لا تراه الأعين. ما نبحث عنه لن تروه بأعينكم بشكل مباشر. الشياطين لا تتصرف كما تفعل في الأفلام حتى أن الملايين يشككون في وجودهم من الأساس! نحن نتحرك خلف نسيج القصة يا آدم. ابحث خلف نسيج قصص الغجر.

- لن أبحث عن شيء لا أعرفه!

همس مهاب –رغم أننا غير مسموعين- وقال:

- هل سمعتم هذه الصرخة؟

هتف حسن:

- كأن امرأة تصرخ حزنًا.

قلت أنا:

- لا يهم. لا يوجد ما يريب..

قبل أن أكمل عبارتي قفز قرد على مقدمة السيارة وراح يصرخ بصوت رفيع ويضرب بكفيه الزجاج. رباه، كيف عبر الرَّصَد؟

نزلت من السيارة شاهرًا مسدسي، فنزل حسن ومهاب يحاولان إبعاد القرد ذي الفراء البني المخضر، لكني أسرعت أمسكه من قذاله كي لا يستطيع عضي. على ظهره خدوش غائرة غير مغطاة بالشعر، لكنها أقرب لخطوط ملتوية. قفز جبر إلى جواري وضيق عينيه يحاول فحص النقوش على ضوء كشافي السيارة، والقرد لا يكف عن

التملص والصراخ.

دون إنذار، جذبه من يدي وضرب رأسه إلى مقدمة السيارة مرتين حتى أزهق روحه. صاح حسن:

- أيها الهمجي!

- شيطان.. لكنني لست همجيًا.

بأصابع ملوثة بالدماء راح يجذب الفراء بقوة حتى أزال الشعر من حول الجروح، فظهر لي نقش ربما يكون لغة ما. مال حسن يقيء، ووقف مهاب يربت على ظهره وهو يقول:

- حسنًا أيها الشيطان غير الهمجي. هل تعرف المكتوب؟

- أعرفه. هذا مُسخة.

- مُسخة؟

- إنسان ممسوخ على هيئة قرد، والكتابة بالنبطية. تعويذة مَسخ. في النهاية أنا أرحت كائنًا من عذابه، ألست شيطانًا رقيق القلب؟

قلت له وأنا ألتقط عدة صور للقرد:

- مَن مسخه؟ هل يعني هذا وجود ساحر هنا؟

- يعني الكثير، على الأقل يعني أننا في المكان الصحيح.

سأل حسن وهو يرتكن إلى السيارة:

- ما علاقة القرد بالطفل الذي صورته؟

- سنعرف كل شيء بالتدريج. والآن يجب أن نتحرك خارج الرَّصد وإلا لن نعرف شيئًا. ما الخطة التي وضعها نصف الشيطان لتقصي الأمر؟ الحبس وسط المخيم وانتظار ما يمن عليه بنا الحظ؟

قلت –أنا نصف الشيطان-:

- أنت من لجأت لي، ولو كنت قادرًا على التقصي وحدك لفعلت. عمومًا، سأخرج من الرَّصد وأستكشف المكان.

هتف مهاب:

- سآتي معك.

- خطر. لا نعرف ما قد نتورط فيه، ولن نترك حسن مع جبر، ولن يأتي حسن معنا ونترك جبر وحده ولن نخرج نحن الأربعة فلسنا مدعوين على سينما!

أدركت أن صوتي يعلو وقد أغضبني وجودهم كأصفاد حول كاحلي، مربوطة إلى كُرة حديدية تثقِل حركتي. ليتني سافرت وحدي وليضربوا رؤوسهم في الحائط اعتراضًا. يا لتخبُّط تفكيري هذه الفترة.. سحقًا!

فتحت حقيبة ظهري لأخرج خنجر من خناجر مهدي لأجد أن الخنجر المزدوج غير موجود. سألت جبر وحسن ومهاب وأنكر الجميع أنهم اقتربوا من حقيبتي أساسًا. أضاف مهاب:

- قلت أن الأطفال رافقوكم في جولتكم، وأراهن أن أحدهم سرق الخنجر منك. أنت سمعت تحذيرات لينا منهم.

- وهل سيسرق الأطفال خنجرًا ويتركون المال؟

- وهل معك مال من الأساس يا آدم؟!

حقًا، أنا لا أحمل مالًا، وأدفع ببطاقة الائتمان لو دفعت بالطبع. لم أستوعب بعد أن يسرق طفل خنجرًا. أخذت الخنجر الطويل الفضي ودسسته بجرابه داخل كُم قميصي، وخرجت من الرَّصد ثم تركت مهاب يتولى مهمة إعادته مرة أخرى كما علَّمته من قبل في مغامراتنا في الإمارات(2).

سرت وسط الخرابيش، أشعر بشياطيني تتحفز وتسترق السَّمع.

« آدم! خلفك!»

التفت إلى الخلف فلم أرَ شيئًا على مستوى بصري، لكني هويت على ركبتي قبل أن أدرك أن هناك مَن قطع وتري أخيل فوق كعبيَّ! ترفعني شياطيني وهي تداوي القطع، فأعدو على قدمين لا يحملانني حرفيًا خلف طفل أعرفه جيدًا. ينظر إلى ما وراء كتفه فلا أتبين تعبير وجهه.

أسقط مرة أخرى، تصرخ شياطيني:

« آدم! بماذا مزقك؟! الجرح لا يندمل! ابحث عن نجدة بشرية فورًا!»

أخرجت هاتفي المحمول بيد راجفة وأنا أرمق بقعة الدماء التي تتسع من تحتي. سأفقد الوعي خلال دقائق ما لم ينجدني أحد.. لكن هل سأموت؟ هكذا من دون صراع ولا هدف أقدم له حياتي؟!

- مهاب.. أنا جريح.. تعالَ فورًا.

وصفت له المسار الذي اتخذته، ثم جلست فخلعت قميصي ومزقته بأسناني محاولًا تحويله إلى رباطين ضاغطين.

- الشهاب يهوي.. نجم آخر ينطفئ. ربما أنت..

أجفلت ونظرت خلفي لأرى رجلًا قد يفوق عمره عمر ديهيا(3) نفسها، يحمل حقيبة جلدية عتيقة ويغطي رأسه بقطعة قماشية قذرة، ويرتدي فانلة داخلية كانت بيضاء وبنطال من قماش ثقيل.

- مَن أنت؟!

حرَّك شفتيه فكشف عن أسنان مسودَّة ضخمة، ثم بصق وأجاب:

- سعدون. وأنتَ؟

- آدم. أنا الصحافي الذي جئت في الصباح. لقد فقدت شيئًا هامًا وجئت أبحث عنه، فباغتني طفل ومزق كاحليّ كما ترى.

مد سعدون قدمه في الخف الجلدي المفتوح ليدفع الخنجر الذي سقط من قميصي عندما خلعته، وقال:

- وهل وجدت ما تبحث عنه؟

- ليس بعد.

مال يلتقط الخنجر ويتفحصه، ثم فتح حقيبته ووضعه فيها، وركع جواري يبحث عن شيء آخر في الحقيبة.

- خنجر ممتاز. سأضمه –بعد إذنك- إلى أدواتي الجراحية.

رأيت مهاب يعدو نحوي على ضوء كشافه اليدوي ومن خلفه حسن. نظر سعدون إليهما وأضاف بلهجته الأردنية التي شوَّهتها أسنانه المفقودة:

- المزيد من الصحافيين الذين فقدوا أشياءً مهمة.

- جاءوا معي. مهاب وحسن.. هذا السيد سعدون.

سأله مهاب:

- أنت من الأهالي هنا؟

- أكبرهم سنًا، وإن لم أكن أكبرهم مقامًا بالطبع. أخبرني عن الطفل الذي آذاك.

أخرج سعدون مقصًا جراحيًا ولفافة قطن قذرة وخيطًا أسود، وزجاجة من سائل ما. أجبته:

- طفل في الثامنة تقريبًا، ذو شعر ناعم طويل.

أضاف حسن:

- معي صورته.

عرض حسن صورة الطفل على سعدون، فعقد حاجبيه وقال وهو يحرك شفتيه مرة أخرى مطلقًا صوت مبتل مقزز:

- من هذا؟! لا أعرفه. أعرف كل أطفالنا بالاسم، وعدد أسنان كل واحد منهم.

تعجَّبت من التفصيلة الأخيرة. فتح الزجاجة وصبَّ ما فيها على جرحي، فشعرت بوخز حاد، ثم طلب من مهاب معاونته بالكشاف وهو يقول:

- ستحتاج إلى مستشفى. سأغلق الجرح فقط كي لا تنزف أكثر.

تهمس شياطيني:

«دعه يوقف نزف الدماء وانتظر.. آدم.. لقد طعنك مهدي أبركان من قبل بخنجر الزوهريين ولم تمت. لقد حاولت كل كائنات الخفاء عند ديهيا قتلك وفشلوا.. من هذا الطفل؟»

طوَّق مهاب كتفيَّ بذراعه بينما سعدون يخيط الجرح من دون مخدِّر وهو يضيف:

- يبدو أنك لن تكون النجم الذي هوى من السماء اليوم.

أسأله:

- ماذا تعني؟

نظر إلى السماء لحظة وهو يقول:

- هذه النجوم.. هذه أرواح البشر. عندما يسقط واحد منها فهذا يعني الموت.

سأله حسن:

- أ.. أنت تعرف أننا صحافيون؟ كنت أريد أن أسألك عن موضوع النجوم هذا. هل هذا معتقدك الخاص أم هو معتقد غجري؟

رمقه سعدون بنظرة ضيق من زلة لسان الشاب إذ استخدم كلمة «الغجر»، لكنه أجاب:

- ليس معتقدًا شخصيًا، بل حقيقة. نؤمن بها جميعًا منذ آلاف السنوات.

- ماذا تعمل يا سيدي.

تشاغل سعدون في خياطة الجرح، فسألته من بين أسناني:

- ماذا في هذا الاتجاه؟

أشرت إلى حيث اختفى القرد سابقًا والطفل منذ قليل، فأجاب:

- إلى المَعليّة.

نظر ثلاثتنا إليه متسائلين، فأضاف:

- يمكنكم اعتبارها معبدًا قديمًا.

ساد الصمت والرجل يخيط لحمي، وأنا أكتم ألمي وتحاول شياطيني الحائرة فعل أي شيء ينقذني من العجز. عندما انتهى، جمع حاجياته ومد يده لي يطلب أجرته، فأخرج له مهاب بضع دولارات، لم يكن معنا دينارات أردنية، فدس الرجل الأوراق في جيب بنطاله وسار مبتعدًا وهو يكرر:

- ستحتاج إلى مستشفى، لكن لا مستشفيات هنا في أرض الضوم. ليس لديهم سوى سعدون والقدر.

لا أعرف إن كان اهتزاز كتفيه ضحكًا أم بكاءً. ابتعد في الظلام،

وحملني مهاب وحسن إلى حيث السيارة الخفية داخل الرَّصد. أخرج مهاب حزام ديهيا من حقيبته وأزال السحر، لتظهر السيارة الخاوية أمامي. صاح مهاب:

- أين جبر؟!

- هرب؟! كيف؟

أجلسني مهاب على المقعد وراح يفتش السيارة كأنه يبحث عن فأر، ولم يجد سوى مجلات وقصص الشيطان المفقود. قلت له:

- كيف عبر القرد الرَّصد؟ إن كانت هناك مشكلة فيه لعرفتها. السيارة كانت مخفية عن عينيَّ وأعين شياطيني منذ لحظات، وجبر أضعف من أن يفعل أي شيء من حيل الشياطين.

غمغم حسن:

- سوى الوسوسة.

نظرت إليه فأضاف مفسرًا:

- جبر لم يفقد قدرته على الوسوسة واختراق الأحلام. أحلام من يعتبرهم أطفالًا بعد بالطبع. لا زال جبر يزور أحلامي ويجعلني في كل ليلة أصدق أن عمرو لم يرحل، وكل ما عشته حتى اليوم كابوس طويل. أنا لا أنام.. لا أرتاح.. الصخب في عقلي لا ينقطع..

- هل تسمعه الآن؟

- لو نمت، ربما أراه.

لم يكن أمامنا الآن سوى الابتعاد عن المخيم ومحاولة النوم في مكان لا يصلنا فيه قرود ولا أطفال قتلة. المشكلة أنني صرت عاجزًا ولو مؤقتًا. عبئًا على المجموعة التي فقدت فردين شيطانيين في ساعة واحدة.

قبل أن نبتعد، سأل حسن سؤالًا منطقيًا:

- أين جثة القرد؟

***

-٧-

الألم في ساقيّ لا يُطاق، رغم توقف النزف نوعًا بسبب الخياطة والرباط الضاغط الذي اشتراه لي مهاب، فألم التنميل أشد من ألم الجرح نفسه..

ولا زالت شياطيني تحاول ترميم الوترين الممزقين..

أزال مهاب حاجب الشمس عن زجاج السيارة الأمامي ليرى الشارع الضيق الذي أوقفنا فيه السيارة تحت الرَّصَد. الساعة الآن السابعة صباحًا. حسن نائم على الأريكة الخلفية فوق كتب جبر. نظر مهاب إلى هاتفه لتتسع عيناه ويهتف:

- لينا اتصلت بي مليوني مرة ولم أسمع الهاتف. يبدو أنني أخفضت صوته دون أن ألاحظ بعدما أجبت اتصالك فجرًا.

- وماذا تريد في هذه الساعة؟!

فتح مهاب رسالة منها على واتساب وقرأ:

- أستاذ مهاب، هل أنتم بخير؟ لاشين بخير؟ اتصل بي للضرورة في أي وقت، أنا لا أنام ليلًا.

نظرت لوجهه القلِق، وقلت:

- لن أقبل أن يكون لدى لينا هذه قدرات خارقة! هذا أكثر من قدرتي على الاحتمال! يبدو أن أسامة الإنسان الوحيد الطبيعي في عالمي!

اتصل بها مهاب، فأجابت فورًا. فتح مكبر الصوت فسمعت صوتها تقول:

- أين كنتم؟

قال مهاب:

- مغامرة ليلية قصيرة تسببت في مشكلة صحية للاشين. إصابة لم تستطع شياطينه مداواتها. هل تعرفين طبيبًا يعرف أبعاد وضعنا؟

- إصابة لا يمكن لشياطينه.. ماذا؟ سآتي لكم حالًا. أرسل لي مكانكم.

بعد ساعة إلا ربع وجدنا سيارة لينا تتوقف عند بداية الشارع الضيق، وتترجل منها حاملة علبة وخمس أكواب قهوة في حامل من الورق المقوى.

- الإفطار يا شباب.

استيقظ المراهق الجائع دومًا ليحمل عنها العلبة ويفتحها، فتهِل علينا رائحة «المناقيش» بالزعتر. تنحني لينا لترى بنطالي الغارق في الدماء، وساقيّ المكشوفتين المضمدتين. حكيت لها ما حدث بالتفصيل، فقالت:

- سعدون هذا ربما يكون معالج هذه المجموعة من الضوم. أغلبهم يتلقون معاملة سيئة في المستشفيات.

- بدا لي مخبولًا. تحدث عن شهب وموتى وأخذ خنجري.

- أنت أثرت ريبته، ونحمد الله على أنه تركك وشأنك. المهم، كيف جرحك هذا الولد جرحًا كهذا؟ وأين القرد الذي تزعمون؟ وأين ذهب جبر؟

قال مهاب وهو يلف «المنقوشة» حول نفسها ويلتهم طرفها:

- الرَّصد يعمل جيدًا، مسألة دخول القرد إليه وخروج جبر منه مسألة غريبة.

- ربما لم يمت القرد واستطاع إخراج جبر من الرَّصد كما دخل هو؟

رفع مهاب كتفيه بمعنى «ربما» وألقى بباقي «المنقوشة» في فمه، ثم نظر إلى العلبة على فخذي حسن يبحث عن أخرى. رشفت قهوتي وقلت لها:

- كيف سأتحرك؟ هل نجهض المهمة ونعود إلى مصر؟

- وجبر؟ والطفل والقرد والشيطان الذي هرب؟ هذه أبواب مفتوحة خطرة. لن يمكنك تلقي العلاج هنا من دون إثارة الريبة والتساؤلات الأمنية للأسف. لا أعرف أطباء على علم بوضعك. لا يمكن فعل شيء لحالتك سوى تناول المضادات الحيوية والمسكنات. سأحضر لك عكازين. هل تستطيع الحركة على عكازين؟

- أعتقد هذا. لا بأس. كيف عرفتِ أنني في خطر؟

ابتسمت لينا وقالت:

- قلب المؤمن؟

- استبصار؟

- أنا طبيعية تمامًا، وليس لدي أي مواهب خارقة.

غابت لينا نصف ساعة أخرى ثم عادت بالأدوية والعكازين. قال مهاب:

- أقترح أن أعود وحدي أو مع حسن إلى المخيم لنرى إن كانت هناك مستجدات، ثم نذهب إلى المعليَّة.

- لنذهب جميعًا إلى المعليَّة.

قلتها وأنا أقف مستندًا إلى العكازين مضيفًا:

- شكرًا يا أستاذة لينا على كل شيء. يمكنك النوم قليلًا الآن.

- لن يكون هذا. سهير أوصتني عليكم، خاصة على هذا الشاب الجائع.

ونظرت إلى حسن الذي ابتسم في حرج. أردفت:

- بالإضافة إلى أنكم قد تحتاجون إلى إرشاد سياحي.

- كيف تعرفين كل هذه الأمور؟

- كما تعرف أنت يا باشمهندس آدم تاريخ المصريين القدماء وأصول المصريين الحاليين وعاداتهم. لا تنس أنني كاتبة أيضًا وقارئة نهمة.

هكذا، قررنا أن نذهب إلى المعليَّة أولًا، ثم نقرر من هناك ما يمكننا فعله بعدها.

***

-٨-

لم نجد المعليَّة التي أشار إليها سعدون، فمجرد الإشارة لاتجاه ما في الصحراء دون تحديد مسافة لن توصلنا إلى شيء. اتجهت بنا لينا بعد البحث الفاشل إلى المذبح في البتراء، وهو بناء حجري أثري وسط الصخور، بُني في عصر وثني بهدف تقديم القرابين إلى الآلهة.

أشارت لينا إلى ما يشبه المسلَّتان الصخريتان وقالت:

- هذان يرمزان إلى المعبودين الوثنيين ذي الشرى والعُزى.

المذبح عبارة عن ساحة محاطة بمدرجات من ثلاث جهات، يتوسطها مذبح مستطيل للطواف حوله، وآخر دائري لوضع دماء القرابين. أضافت لينا:

- كان الأنباط يعبدون الآلهة القديمة التي ذُكرت في القرآن، اللات والعُزى ومناة، وكلهن معبودات إناث، أما ذو الشرى فهو كبير الآله الذكر. بالطبع تغيرت تفاصيل منحوتات هذه الآلهة عبر الزمن، من مجرد مكعب حجري إلى تماثيل محددة المعالم. هل تودون زيارة المعبد الكبير؟ هو أحد أضخم المباني التي شيدها الأنباط، محفور بالكامل في الصخور كأغلب المباني هنا.

أجبتها أنني أود التركيز أكثر في قضيتنا، وقد لفت نظري المذبح، وتعبير وجه مهاب الغريب الذي فهمت على الفور أنه يستعيد ذكريات مِهر عن هذا المكان. مال عليّ هامسًا وقد اكفهرَّ وجهه:

- الطقوس الوثنية شنيعة كفاية. كل هذه الدماء المهدرة التي

يظنها الأثريون حيوانية، لم تكن دماء حيوانات فقط. أنا متأكد من هذا.

- وهذه المعبودات يا مهاب؟ أكانت شياطين؟

هز رأسه إيجابًا. أشعر أننا على أول طريق ما. سألت لينا وأنا أرمق أطفال الغجر «يتفرطعون» على حسب التعبير الأردني الدارج حول السائحين:

- هل يمكن أن يكون هناك مذابح أخرى لم تصل إليها أيدي الأثريين؟

- لا يوجد ما يمنع خاصة إن كانت بعيدة أو صغيرة أو مدفونة جزئيًا. الصحراء ممتدة وعرة كما ترى، والمباني منحوتة في الصخور ولا يمكن تمييزها بسهولة، وقد انتقلت عبادات هذه الآلهة حتى وصلت مصر نفسها، لقد وصلت قصرويت قرب العريش، وعُثر على معابد نبطية هناك.

- أستاذة لينا، هل كل الأردنيين يعرفون هذه التفاصيل؟ يبدو لي أنك قد ذاكرتِ هذه التفاصيل قبل أن تأتي.

ضحكت لينا وداعبت الريح حجابها فغطى وجهها للحظات قبل أن تستدير لتوليني والريح ظهرها وتقول:

- ثقافة عامة واهتمام بأصولي الثلاثية يا باشمهندس. أعرف عن مصر قدر ما أعرف عن الأردن وفلسطين. سأبهرك لو واتتني الفرصة.

بحثت عن حسن فوجدته جالسًا على صخرة هناك يرمق تمثال

العُزى أو ذي الشرى، لا أعرف، وهو شارد يستمع إلى شيء عبر سماعتي أذنيه. وكزت قدمه بعكازي فنظر إلي. جلست إلى جواره أنظر إلى نساء وأطفال الغجر الذين يحاولون بيع شيء ما لمهاب ولينا وقلت:

- ألم تحلم بشيء؟

- كل أنواع الكوابيس. لم أرَ أشباحًا أو شياطين.. لم أحلم بعمرو حتى.. لم أرَ سوى حياتي العادية. أم وأب تخلوا عن ابنهما الوحيد ليتزوجا هم وينجبا غيره في عائلات أكثر استقرارًا. حلمت بمبيتي في كل بيت من بيوت العائلة ليالي لا يغمض لي فيها جفن خشية أن أكون قد فعلت ما يضايقهم ويتخلون عني بسببه. لكن وجودي كان ثقيلًا لسبب لا أعرفه. حسن شاب وسط بناتنا وسيثير المشاكل.. حسن شاب وسط أولادنا وسيثير المشاكل. هل تعرف شعور ألا يكون لك بيت؟ أن تحمل حياتك في حقيبة ظهرك وتبحث عن ملجأ جديد كل يوم؟

- أفهم..

ونظرت إلى الحقيبة على كتفي.

- جدتي كانت تحبني، لكنها لم تكن مستعدة لتحمل مسؤوليتي وهي تحتاج إلى من يتحمَّل مسؤوليتها. المعاش القليل لا يحتمل القسمة على اثنين. المنزل يحتاج إلى تنظيف، هي تحتاج إلى رعاية مستمرة. الشيخوخة جعلتها عصبية متطلبة، لا أستطيع الحديث معها على راحتي أو المطالبة بعناق يُشعرني بالأمان. لم يكن في

حياتي أخ سوى عمرو، ولا بيت سوى بيت عمارة قابيل، ولا أم سوى والدة هذا الرجل الواقف هناك الذي وهب حياته لحمايتي كأنني ابنه. لكن.. هل لي بيت حقًا؟ هل لي حق في حجرة عمرو أم أن الحق ذهب إلى أصحابه، أخويه؟ هذه الأحلام تمزقني أكثر من أي شيطان قابلناه.

شردت لحظات في جرح ساقيّ الذي يغطيه البنطال النظيف، والحروق الواضحة إذ انحسر بنطال حسن على كاحليه. غالبت رغبة سخيفة في دس وجهه في صدري، وسألته سؤالًا أكثر سخفًا:

- أين تظنه ذهب؟ أعني جبر؟

- لا أعرف. هل استغلنا حتى ننقله إلى هنا لسبب لا نعرفه؟ هل كل هذا فخ؟ كيف خرج من الرَّصد؟ حقًا لا أعرف.

التقط حسن بضع صور للمكان، وتناسيت أن صور سهير قد تكون ذات قيمة أكبر. شياطيني مشغولة في علاجي، ولا أجد لهم نفعًا الآن. هي شياطين على كل حال ولن تتحرك إلا لنفعها.

اقترحت لينا أن تدعونا على الغداء، لكني رفضت وفضّلت أن أدعو الجميع مساء بعد أن نعود إلى المخيم مرة أخرى لإلقاء نظرة أوضح.

عندما وصلنا كان الهرج قد ساد المخيم، وثمة امرأة تصرخ وتلطم ونساء أخريات يواسينها. اخترقنا أحد التجمعات وأبرز مهاب ميكروفونه وبدأ حسن في التصوير وعلّقت أنا بطاقة الصحافة على صدري. همست لينا:

- يبدو أن أحدهم قد مات.

تذكرت الشهاب وما قال سعدون عندما أبصرت ظهره النحيل المنحني على لفافة قماشية صغيرة وحوله بعض الرجال. ناديته، فنظر لي عاقدًا حاجبيه من قوة ضوء الشمس.

- ماذا يحدث؟

- لماذا عدتم؟

- لم ننته بعد من التغطية الإعلامية التي نريدها.

نظر لي من أعلى إلى أسفل وهو يحرك شفتيه فوق أسنانه، ثم قام يمسك كوعي ويبعدني عن الزحام وهو يقول:

- لا داعي للكذب. أنا لن أتفوه بشيء عنكم، لكني كذلك لا أريد غرباء مجهولي النوايا وسطنا. إن كنت تريد البقاء هنا أخبرني بالحقيقة. الحقيقة كلها مهما كانت غريبة.

- نحن إعلاميون ومعنا ما يثبت هذا.

نظر لي مبتسمًا واستدار مبتعدًا وهو يقول:

- لقد فقدنا أحد أبنائنا، ولا نحب وجود الغرباء وقت الدفن.

أشار لي مهاب من بعيد أن أتكلم مع سعدون أكثر، ثم انطلق إلى حيث الجمع حول اللفافة. ناديت سعدون أسأله:

- هل يمكن أن ترى إن كان جرحي قد التهب؟

- لماذا لم تذهب إلى طبيب؟ أنت تخفي ما هو أكثر من هويتك أيها

المصري. أنا رأيت الكثير ولن تخدعني. وجودك هنا والآن بالذات لا يعني سوى أنك إبليس نفسه.

- انتظر! ما الذي دفعك لقول شيء كهذا؟

- يكفيني نظرة على جروحك، وعلى الخنجر معك. لا تستهن بنا، لسنا بدائيين أغبياء. ارحل أنت ومَن معك.

عاد مهاب مهرولًا، فتركت الغجري يرحل. اقتربت مني لينا وحسن وتحلَّقنا حول مهاب الذي مد يده بهاتفه المحمول يرينا ما التقطت كاميرته.

الصورة تبين جسدًا ملفوفًا بخرقة قماشية خفيفة، ربما هو جسد طفل لا يتجاوز عمره عامًا أو عامًا ونصف. أشار مهاب إلى طرف الصورة حيث يبرز شيء أسود عليه شعيرات مخضرة. ذيل القرد الذي قتله جبر أمس.

***

-٩-

أعرف أنني قد أبدو مختلًا، لكننا هنا لهدف واضح، وهناك شيطان واحد طليق على الأقل، وهو شيطان ماكر تلاعب بعالم الظلمات كله وأثار حنق شياطين سقر. لو أن كلام سعدون حقيقي عن وجودة معليَّة أو مذبح سري قرب المخيم فما الذي يُعبد فيه؟ ما علاقته بالمُسخة/ القرد الذي استطاع اقتحام الرَّصد؟ هل جاء لتهريب جبر؟ هل عبر الرَّصد باستخدام جثته؟ إلى أين ذهب إذًا؟ إلى المعليَّة؟

تساؤلات أكثر من قدرتي على الاحتمال، لكني أحتاج إلى مساعدة مهاب وحسن على الأقل بسبب حالتي الصحية.

بعد العشاء الذي دعوتهم عليه في أحد المطاعم البدوية الفاخرة قرب البتراء، تأكدت من عودة لينا إلى بيتها سالمة، وعدنا إلى المخيم تحت الرَّصد، ندور من حوله بحثًا على مقابرهم. لا بد أنها قريبة فهم لا يملكون وسائل تنقل حديثة.

لم نبحث كثيرًا إذ رأينا –والسيارة تحت الرَّصد- نارًا موقدة يجلس حولها ثلاث رجال من الغجر، وخلفهم أرض منبوشة مبتلة في مستطيل أكبر قليلًا من جسد القرد الذي رأيناه. لماذا يحرسون القبر، أم أن هذه هي عاداتهم؟

أوقفنا السيارة على مقربة ورُحنا نفكر في طريقة نبعدهم بها عن القبر. قال حسن:

- لماذا لا تخرج إليهم وترعبهم؟

- كنت لأفعل هذا لولا أن سعدون أحد الثلاثة الجالسين حول القبر. الرجل يعرف أنني لست طبيعيًا ولا أعرف حدود معرفته لتفاصيل كينونتي، ومعه خنجر مهدي أبركان. أعرف أنه لن يؤثر فيّ، لكنني لن أغامر خاصة مع إصابتي مجهولة السبب هذه.

قال مهاب وهو يشغل محرك السيارة ويضيء كشافاتها العالية:

- إذًا نستخدم الطريقة البشرية. انزل أنت وحسن، وسأزيل الرَّصد وأطاردهم في الصحراء بالسيارة. لن يجدوا وقتًا لفعل أي شيء سوى الهرب. الكشافات العالية ستخفي معالم السيارة وسائقها.

قلت له وقد أعجبتني الفكرة –أم تراها أعجبت شياطيني-:

- فكرة جيدة. عمومًا لن يفيد إخفاء هويتنا في شيء، لن نستطيع العودة إلى المخيم مرة أخرى، لا بد أن سعدون فضح أمرنا.

ترجَّلت أنا وحسن، وأخذت الحزام فوضعته على الأرض، وأدرته لأزيل الرَّصد. لمحت الدهشة على أعين الرجال إذ أضاءت كشافات السيارة التي ظهرت وسط الخلاء فجأة وجوههم، ثم انطلقت نحوهم وسط سحابة من الرمال التي نثرتها عجلاتها. انطلق الرجال يعدون في كل صوب، ومهاب يناور بالسيارة مثيرًا المزيد من الغبار ليحجبنا عنهم.

انطلقت وحسن إلى التراب المبتل، وركع الشاب الصغير ينبشه وأنا أعيد الرَّصد حولنا. لو نظر الرجال نحو القبر لن يجدوه.

لم تكن اللفافة مدفونة على عمق كبير، ووجد حسن حولها دمية

قماشية وكوبًا من الصفيح وكُرة صغيرة. هذه أغراض طفل صغير، عرفت لاحقًا من لينا أن الغجر يدفنون مع المتوفى أغراضه.

سحب حسن اللفافة خارج القبر وهو يغطي أنفه بطرف التيشيرت الذي يرتديه. انسدلت خصلات شعره البني الناعم على جبينه وهو يحل الأربطة ليظهر أمامنا ما لم نتوقَّع.

- لاشين! ما هذا؟!

صوب حسن الكشاف نحو الهيكل العظمي حالك السواد، والمحفور على عظامه حروفًا نبطية –مثل التي كانت على ظهر القرد-. الهيكل لطفل، هذه جمجمة طفل وجسد طفل، إلا أن عموده الفقري يمتد إلى ما بعد الفقرات العجزية في ذيل رفيع طويل.

- ما هذا؟!

لم أجبه، فلا أعرف ما هذا حقًا. رُحت أفكر بسرعة ثم هتفت:

- احمل هذا الشيء.

أزلت الرَّصد، وأطفأت النار بالرمال كما اتفقت مع مهاب علامة على أننا انتهينا من النبش. انتظرت حتى أضاء كشافا السيارة مكاننا ودققت على الأرض بالعكاز، فاقترب منا مهاب وأوقف السيارة لنركبها وننطلق بغنيمتنا مجهولة العواقب.

***

-١٠-

صوَّرت العظام بمجرد ابتعادنا وأرسلتها للينا، ولم أُظِهر في الصور أكثر من الكتابات فحسب، لا أريد أن أورطها في معرفة تفاصيل لا لزوم لها.

- أستاذة لينا، هل تعرفين من يترجم لنا هذه الحروف النبطية؟

- سأسأل من يدرسون في الجامعة. أين وجدت هذه الكتابات؟

- في مكان ما من المخيم.

- أين تحديدًا؟ ربما يكون هذا كشفًا أثريًا مهمًا.

- سنتحدث عن الأمر لاحقًا. فقد حاولي أن تجدي لي من يترجمها أقرب وقت.

أوقفنا السيارة في مكانها قرب تل القمامة في المخيم المفتوح على السماء الصافية. الهواء يدفع البلاستيك المصنوع منه الخيام فيصدر صوتًا كأنه صوت طلقات رصاص أو رعد. الجو به لمسه برودة حزينة تتماهى مع الوجوم الذي أصابنا منذ عدنا.

لم يمر سوى ربع ساعة حتى رأينا الرجال الثلاث الذين كانوا عند القبر يدخلون القرية متعجلين يحملون الأغراض التي كانت في القبر وتركناها. أضواء بضع كشافات تشتعل داخل الخيام. سعدون يقف بالخارج ينظر حوله ويشرب من زجاجة صغيرة معه.

سأل حسن:

- ماذا سنفعل؟

- سنراقب ردود أفعالهم. أتمنى أن يقودنا القرد إلى شيء ما. ألا تشعر بوجود جبر؟

- لا شيء سوى الذكريات التي حكيت لك عنها.

أشعل رجل نارًا ورمى فيها الأغراض التي كانت مع القرد مع بعض الملابس الأخرى، ووقفت امرأة تلطم خديها وتبكي أمام النار حتى خمدت. من بين الواقفين لمحت الطفل إياه، الذي طعنني وهرب.

هتف مهاب:

- الطفل.. الطفل هناك.. إنه ينظر نحونا مباشرة!

قال حسن:

- إذًا هو ليس القرد.

- ربما هو قرد آخر.. ربما هناك الكثير من «المُسَخ».

غمغم حسن:

- هذا يعني أن المُسَخ يروننا رغم وجود الرَّصد.

هززت رأسي، وطلبت منهم التأهب في حال هاجمنا الطفل أو أي شيء آخر. لو هربنا لن نعرف شيئًا.

قبل أن يعود الجمع إلى خيامهم، سمعنا بكاء أطفال يصدح من أكثر من خيمة، وبدا على الناس القلق وهم يهرعون لمعرفة سر البكاء والصراخ المفاجئ. أطفال من أعمار مختلفة يخرجون من الخيام

وبعض المراهقين الغاضبين يرطنون بكلمات بلغة الضوم واري لا نفهمها، حتى أن واحدًا منهم رمى رجلًا مُسنًّا بعبوة صفيحية مملوءة بالماء، فاشتبك الجميع. فقدت الطفل غريب الأطوار وسط الزحام الذي لم ينفض، بل اشترك فيه الشباب والمراهقون من الجنسين بالضرب والرّكل، حتى خرج أحدهم سلاحًا ناريًّا ضرب منه طلقة في الهواء جمّدت الجميع. قال الرجل ذو السلاح شيئًا بلهجة آمرة، فعاد الجميع إلى خيامهم وهم يتوعّدون ويبصقون على أقدام بعضهم، ولم يتبق سوى سعدون وصاحب السلاح والرجلين اللذين كانا جوار القبر. تحدثوا قليلًا، ثم رأيناهم يخرجون خارج المخيم ومعهم كشافات.

تبعناهم بالسيارة المخفيّة -عن أعينهم على الأقل- حتى خرجوا إلى الفلاة متجهين إلى مكان مجهول.

قلت لمهاب:

- أكرر، لو حدث اشتباك احمِ حسن يا مهاب.

- أنا لا أحتاج إلى...

- هذا ليس وقت بطولة. أحد الرجال معه سلاح ناري ونحن متسللون ولن نتمكن من إنقاذ أي منكما لو أصيب.

سار الرجال مسافة كيلومترين تقريبًا حتى وصلوا المعليّة التي لم نعثر نحن عليها بالوصف. تشبه المذبح الذي رأيناه مع لينا لكن أصغر بكثير، ومهدّم حتى أننا لم نكن لنميّزه وسط الصخور.

مسح الرجال المكان بالكشافات، ثم توقَّفوا عند شيء على الأرض وتبادلوا بعض العبارات القلِقة. ركع سعدون على الأرض وجمع بعض الأشياء، لعلها أحجار أو حصوات، دسَّها في حقيبته، ثم رحلوا.

انتظرنا هناك حتى الشروق، نام حسن قليلًا ثم استيقظت منتفضًا يبلل العرق قميصه المترب.

- جبر..

- ماذا رأيت؟

- رأيت جبر بشكله الحقيقي.. كيان داكن ضخم ذو ذيل مضفور، وأربعة قرون كالتاج على رأسه. كنت أعرف أنه جبر رغم أنه لم يتكلم.

- ماذا كان يفعل في الحلم؟

- يغني.. شيء مثل: أنا ابن الريح والشمس.. أمي الريح.. أمي الشمس.. لا أتذكر. لكن الصوت حزين.. كأنه.. كأنه يغني في قلبي، هل تفهمان؟

سأله مهاب:

- ما شكل المكان حوله؟

- لا شيء.. ظلمة حالكة.. كان كظل على حائط أسود، لكني أراه جيدًا.

نزلنا من السيارة مع أول ضوء للشمس، وساعدني مهاب وحسن

في تسلق درجات المذبح المهدَّمة حتى وصلنا إلى حيث وقف الرجال منذ ساعات.

على الرمال آثار عشرات الأقدام الصغيرة والمتوسطة، بالإضافة إلى آثار أقدام غير بشرية. طلبت من حسن أن يبحث عبر الإنترنت عن أثر أقدام القرود، ورحلت أدق الأرض بعُكازي وأنا أتذكر الحاجة مريم. كلانا أصابه غضب شيطان فأقعده.

أبعدت ذكرى الأسرة الدافئة تلك، وحدقت إلى الملابس الممزقة المتناثرة التي أفقدتها الشمس والريح تماسك نسيجها، ثم سمعت مهاب يقول:

- ما هذا؟

التفت نحوه لأرى على هاتفه صورة نخلتين قصيرتين خلف المعليَّة حيث لا نراهما إلا إذا اعتلينا المذبح كما فعل مهاب. التقط لهما صورة ليريهما لي، فلن أستطيع الصعود إلى حيث يقف. بين النخلتين سد من نسيج ملون سميك جديد نوعًا.

قفز مهاب إلى أسفل، خلف المعليَّة فاختفى عن نظري، بينما مد حسن يده بهاتفه ليُريني صور آثار أقدام القرود التي تشبه ما نراه على الأرض إلى حد التطابق. ثم آثارًا أخرى لحيوان لم أرَ له أثر في المخيم، آثار أقدام قطط. إلا أن الأقدام لم تكن لقطط أليفة، بل أكبر قليلًا.

- هذه آثار أقدام وشق.

سألني حسن:

- وكيف عرفت؟

- الوشق موجود في الريف المصري. لقد انقرض الآن أو كاد، لكني كنت أراه وأنا صغير في أرض أبي.

رفع حسن حاجبيه مندهشًا، كأن الطفولة لم تغادره بعد. سمعنا مهاب ينادي:

- لاشين، سأتصل بك اتصالا مرئيًا عبر مسنجر، لا بد أن ترى هذا.

تلقيت الاتصال المصور لأرى ما وراء النخلتين. ثمة مكعب صخري محفور عليه وجه بشري بشكل بدائي، وبضع عظام سوداء محفورة، وآثار سائل أسود واضح أنه دم جاف، ينحدر عبر الصحراء في أنهار رفيعة تشي بكثرة ما أريق فوق هذه الصخرة.

آثار أقدام رقيقة في المكان جوارها آثار أقدام الوشق، وبقايا طعام في ركن.

ثم رأيت ظلًا يرتمي على الأرض خلف مهاب وسقط منه الهاتف.

- حسن! هل تعرف كيف تستخدم سلاحًا ناريًا؟

هز رأسه نافيًا في ذعر. ألقيت العكازين أرضًا وشرعت أزحف محاولًا صعود التبة التي قفز خلفها مهاب. جذبني حسن ودفعني حتى استطعت أن أرى ما يحدث لرفيقنا.

كان مهاب قد أمضى الثلاث أعوام الماضية في تعلم رياضة قتالية

ما تفيده فيما تورطنا فيه، فاستطاع جندلة مهاجمه وتثبيته على الأرض رغم الجرح البادي في ذراعه. صوَّبت مسدسي نحو النحيل ذي الفانلة الداخلية التي كانت بيضاء وهتفت:

- سعدون! ارمِ سلاحك! لا داعي للاشتباك من الأساس، نحن لسنا أعداءك.

نظر لي سعدون من أسفل فضرب مهاب يده بالأرض لتسقط سكين يدوي الصنع منها. قفز حسن والتقطها هي وحقيبة الرجل الجلدية المهترئة، ثم دار حول المعليَّة ليعود لي.

أطلق مهاب سراح الرجل، فجلس أرضًا ينفض ثيابه وهو يهتف:

- من أنتم؟! أجيبوا فورًا دون كذب!

مد مهاب يده إلى سعدون ليقوم واقفًا، ثم دارا لنجتمع حول المذبح. جلسنا جميعًا وحسن يفرغ محتويات حقيبة الرجل على الأرض. لفت نظري مرطبان زجاجي يحوي..

- ما هذا؟

- أسنان.

نظرت إليه متسائلًا فأردف:

- بالطبع أنتم تجهلون كل شيء عنا. لا يهمكم سوى القوم المنبوذين السحرة اللصوص أبناء الليل والخطيئة، هه؟ مجرد قشور تجذب العوام ولا يعرف أحد عنا شيئًا. مجرد صيد للهواة وراغبي التباهي بأعمال الخير والمنظمات العالمية التي تلقي علينا الضوء لتفضح

حكومات بلادنا لا أكثر.

قلت له:

- أريد أن أعرف. ليس لي هدف من وجودي هنا سوى المساعدة. ربما كان هدفنا شخصيًا، لكننا لم نستغلكم في أي شيء. نحن فريق تقصي ما ورائي. أنا ساحر.. تورطت في السحر رغمًا عني، وهذان شابان طبيعيان.

- ورابعكم؟ الأسمر؟

سأله مهاب:

- متى رأيته؟ أثناء تصويرنا البرنامج أول يوم؟

- لم أكن موجودًا يومها. أنا معالج أسنان جوَّال. هذه مهنتي ومهنة أجدادي. أصنع الأسنان من العظام والمعدن وأركبها في أفواه من يحتاجها. مهنة اندثرت أو كادت.

- متى رأيت رابعنا إذًا؟

- لم أره. أطفال القرية يحكون عن أنه يزور أحلامهم منذ رأوه يوم التصوير. وصفوا أنه شاب في نهاية العشرينات، أسمر ذو لحية قصيرة وشعر ناعم أسود.

تبادلنا النظرات، فقال حسن:

- وماذا رأوا الأطفال في أحلامهم؟

- ذكريات قديمة مؤلمة لهم، وفي كل مرة ينقذهم هذا الشاب منها

ويفتح لهم باب الهروب من حياتنا القاسية. العالم يتغير، وأبناؤنا يعرفون جيدًا تفاصيل حياة أقرانهم من أبناء الجادچي، ولم يعودوا راضين بالتسول وجمع القمامة والعيش في خرابيش. تفضلت علينا الحكومة في التسعينيات بإدراجنا في مناهج الدراسة بصفتنا من الأقليات في المملكة، لكن لك أن تخمّن أن هذا لم يفد في شيء سوى إثارة الفضول نحونا والسخرية من عاداتنا ومعتقداتنا أكثر. يبدو أن لعنة الجسَّاس لن تفارقنا.

تذكرت حكاية جبر عن أصول الغجر التي يزعمون أنها عربية، فهززت رأسي متفهّمًا. سألني مرة أخرى عن جبر، فأخبرته بالحقيقة. نحن أمام حائط مسدود والوقت يمر.

عقد الرجل حاجبيه لكنه لم يعترض على أي شيء قلته. أخيرًا قال:

- لقد تدنَّست هذه الأرض ويجب أن نرحل.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

- ألن تحاولوا معرفة سبب ما يحدث؟ ما هذا القرد الغريب؟ ما سر هذه المعليَّة؟

أمسك سعدون المرطبان وفتحه ليخرج منه مجموعة أسنان سوداء وهو يقول:

- هذه ليست أسنان بشرية، لكنها كانت هنا حول المذبح. وجدتها أمس واحتفظت بها. القوم عندنا اتفقوا على الرحيل. هذه طبيعتنا،

ما أن تسوء الأمور حتى نهرب.. لا أعرف مما نهرب.. هل نحن جبناء خسيسون حقًا؟! أنا شخصيًا لن أهرب، لن أترك هذا المكان كما لم أتخلَّ عن مهنة أجدادي. أطفالنا يختفون منذ أشهر والشرطة لا تهتم كأننا فئران! بل إن آباءهم لا يهتمون! ينجبون بالعشرات حتى إذا التهمت الحياة بعضهم يظل لديهم المزيد!

ظل صوته يعلو حتى خشيت أن يسمعنا مَن في المخيم. الرجل يحمل مرارة كبرى حقًا.

- أنا من كنت أخلع أسنان أطفال القبيلة منذ خمسة وخمسين عامًا. الأطفال يأتون لي باكين ويرحلون ضاحكين لأن العم سعدون أراحهم من خوفهم من تبديل الأسنان. كنت أراقبهم وهم يتسولون في الإشارات وأثير رعب من يحاول إيذائهم. أنا أبوهم أكثر من آبائهم.. هل تفهمون؟ أنا مجنون القبيلة لأنني أحاول أن أصلح صفوفها كما أصلح فجوات الأسنان. أنا المجنون الذي يطالب بأن يلعب الأطفال بدلًا عن الشقاء والتعرض للإهانات والضرب والإيذاء.

حرَّك شفتيه وهو يغلق المرطبان، ويشرد إلى السماء ويغني أبياتًا مكسورة الوزن:

- أنا ابن الريح والشمس.. قدري هو الرحيل الدائم والحزن الأبدي مكتوب على جبيني.. أمي الريح لا تستقر في أي مكان وتحملني معها.. وأمي الشمس تشرق على بقعة أرض في أقصى العالم لتغيب عنها وتطلع على غيرها، ثم تعود إليها في رحلة لا تنتهي..

اتسعت عينا حسن وهو هتف:

- أغنية جبر!

- من جبر؟ هذه أغنية قديمة للضوم، أغنيها بالعربية لأذكّر نفسي أنني أنتمي إلى الأرض التي أعيش عليها وأنتمي لأجدادي ولست مضطرًا للرحيل. أنا لا أؤمن باللعنات.. أؤمن فقط بالاختيار. تبًا للضعف والهوان..

لماذا كان جبر يغني هذه الأغنية بالذات؟ لماذا يحرك في الأطفال -وفي حسن- ذكريات كريهة؟ بل أي بؤس يعيشه هؤلاء القوم حتى يكون لطفل في الرابعة من عمره ذكريات تفزعه حد الاستيقاظ من النوم باكيًا؟ سأله مهاب:

- ماذا كنت تفعل خلف المعليّة؟

- أنتظر عودة من نبش القبر الذي كنا نحرسه. تصورت أنهم قد يعودون إلى هنا طالما وجدت أسنان سوداء تشبه أسنان المُسخة.

- هل كان هذا المسخة طفلًا؟

- كرم.. طفل في الثالثة مفقود منذ شهر ونصف. وجدنا جثته ملقاة وسط المخيم، لكنها كانت مغطاة بالفراء ولها ذيل طويل، سرعان ما تحللت الجثة أمامنا لتتحول إلى هيكل عظمي غريب محفور عليه نقوش لا نعرف قراءتها لكنها تشبه تلك التي على المعابد. الهيكل الأسود يعني أن صاحبه كان ممسوخًا. هذه أمور نعرفها نحن الضوم ولا يصدقها سوانا.

ابتلعت ريقي واعترفت له أننا مَن أخذنا الجثة. بدا الغضب على

وجهه ثم انفجر ضاحكًا ولم يُعلِّق. سألته:

- لماذا ذهبتم إلى المعليَّة من الأساس؟

- أنت تحدثت عن طفل غريب هرب منك نحو المعليَّة، وهناك أطفال وصفوا نفس الطفل إذ كان يزورهم في أحلامهم قبل أن يظهر رابعكم هذا. ثم.. لو أن هناك مصدرًا للشرور في هذه المنطقة فهو هنا. لطالما كان هذا المكان غريبًا مرعبًا، لا نعرف سره ولا نريد أن نعرف. ظننا لسنوات أننا نأمن أذاه، لكن يبدو أنه نجس، لن يطهره سوى الحرق.

ثم أشار إلى آثار أقدام الوشق وأردف:

- هذه القطط نجسة. لا نُدخلها المخيم أبدًا، فمن أين جاءت إن لم تكن شريرة جذبها الشر؟

هؤلاء هم القوم الوحيدون الذين يكرهون القطط على حسب علمي.

أوصلنا سعدون إلى قرب المخيم ورحلنا بعدما أعطيته رقم هاتفي. ظل مهاب ينظر إلى الرجل النحيل عبر مرآة السيارة حتى اختفى وسط الخيام.

- لاشين.. هذا الرجل غير مريح. لا أعرف لماذا كشفت له أمرنا.

- أمرنا انكشف منذ زمن ولا يمكننا التمادي في الكذب لو أردنا التحرك من مكاننا خطوة إلى الأمام. لقد أعطانا الرجل معلومات مهمة وتبدو لي صادقة، وأكثر تعقيدًا من أن تكون وليدة اللحظة.

ربما أخفى عنا أمورًا، لكني أصدق ما قال.

- ألا تخبرك شياطينك بأي شيء؟

لم تتكلم شياطيني منذ أصبت و عجزت عن علاجي. يبدو أنه لا خطر عليَّ على الأقل وإلا نبَّهتني.

- لاشين.. ما الذي جعل سعدون هذا يذهب إلى المعليَّة وحده؟ لماذا كان مع مَن يحرسون هيكل القرد؟ ما نوع الصدفة التي أرسلته لك في عتمة الليل لينقذك؟ ما علاقة الأغنية التي يغنيها بجبر؟ خذ حذرك..

نظرت إلى حسن الصامت في الخلف، عيناه يحيطهما السواد ووجهه شاحب.

- حسن؟

- هه؟ هل تحدثني؟

- هل أنت بخير؟

هزَّ رأسه إيجابًا ثم وضع سماعتيه وفتح واحدًا من كتب جبر وأخفى وجهه خلفها.

الفصل الثاني

-١-

عند الظهيرة، وبعدما اغتسلنا تحت الرَّصد بزجاجات مياه معدنية، لبينا دعوة لينا على الشاي في مقهى ذو طابع بدوي غير مُفتعل.

- هل وصلتِ لشيء بعد في أمر الكتابات؟

- ليس بعد. أرسلتها لصديقة تعرف مختصًا قد يستطيع ترجمتها. أين وجدت هذه العظام؟

- عظام؟ كيف عرفِت أنها عظام؟

نظرت إلى مهاب فعقد حاجبيه وقال:

- لم يخبرك أحد أنها نقوش على عظام. أستاذة لينا.. هل تراقبيننا؟

حكّت أنفها وقالت:

- موضوع العظام السوداء المنقوشة أسطورة معروفة عند البدو. يُقال أنها عظام صغار الجن الذين قتلتهم النسور. أعرف أنها أسطورة، لكن ما الذي يمنع من أن أؤمن بصدقها إن كنت قد جالست نصفَ شيطانٍ، ورجلًا تختلط ذاكرته بذاكرة كائن سمائي، وشيطانًا هاربًا؟

حكيت لها مغامرتنا وكيف حصلنا على الهيكل، ورحلتنا إلى المعليّة. قالت لينا وهي تشاهد الصور على هاتف مهاب، وتكبِّر صورة النخلتين:

- ثمة قصة لا أعرف مدى صحتها، لكنها تُروى عن الصحابي خالد بن الوليد. يقال أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم..

صلينا على رسول الله، فاستطردت:

- .. في العام الثامن من الهجرة أرسل خالد بن الوليد لتحطيم صنم العُزى، وكان الصنم خلف نخلة يقدسها عبدتها. قيل أن الصحابي حطم الصنم وعاد إلى النبي فسأله: ماذا رأيت؟ فقال له أنه لم يرَ شيئًا، فأمره بالعودة إلى المعبد مرة أخرى، فخرجت لها امرأة شعثاء تولول وكُهّان معبدها يهربون إلى الجبال، فضربها بالسيف وهو يهتف: يا عُزى كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك. ثم عاد إلى النبي فقال له: تلك العُزى ولا تُعبَد أبدًا.

سألها مهاب مضيقًا عينيه –هل أصبح مرتابًا أكثر من الطبيعي؟-:

- يبدو لي أنك متخصصة في كل ما يتعلق بقضيتنا، ولن أتعجب لو كنت تعرفين النبطية وترجمتِ بنفسك العبارة. ألا ترين هذا؟

فهمت لينا السخرية في كلماته فابتسمت وأجابت:

- نعم، لا أرى هذا. ما تعلّمته من عملي كاتبةً هو أن أبحث جيدًا قبل أن أخط حرفًا. أعتبر نفسي بشكل ما مسؤولة عنكم طالما أنتم هنا، وإن لم يكن لديكم وقت للبحث عن التفاصيل، فلدي وقت. كل ما أخبرتكم به متاح على الإنترنت وليس سرًا حربيًا.

قلت أنا:

- إذًا فالمعليّة معبد لإله وثني، ما موضوع النخيل هذا؟

- لا أعرف. لقد تذكرت موضوع معبد العُزى هذا بسبب الصور. هل هذا معبد آخر للعُزى؟

- هل العُزى شيطانة؟ هل عادت بعدما قُتِلت؟

تساءل مهاب:

- هل هذا معبد إلهة أخرى لم تُقتل بعد؟ شيطانة عادت الآن لسبب ما وشعر بها جبر؟

غمغمت لينا:

- بمناسبة جبر.. المفترض أن يمنع الرَّصد جبر من الخروج منه، لكن القرد عبر الرَّصد، وقد وجد سعدون هذا القرد وسط المخيم واختفى جبر. ماذا نستنتج؟

قلت:

- نستنتج أن جبر يعرف ما لم يصارحنا به عن الممسوخين.. وأنه حمل جثة القرد وعبر بها من الرَّصد، ثم تخلَّص منها وسط المخيم. هذا يعود بنا إلى أن جبر خدعنا جميعًا واستدرجنا لنقله إلى الأردن. كان سيهرب على أي حال.

هتف مهاب وهو يصب المزيد من الشاي في كوبه:

- نحن إذًا في مواجهة شيطانين لا واحد. هذه مشكلة بين جبر والشيطان الذي يسكن المعليَّة، أعتقد أنهم سيتركاننا لحالنا.. لكن هل نتركهم نحن وما يفعلون بالممسوخين والأطفال؟

- لن تتركنا الشيطانة لحالنا يا مهاب. لقد انكشف أمري، ورآني الطفل أجري خلفه للحظات قبل أن أسقط، وهذا غير ممكن لو كنت إنسانًا طبيعيًا. هذا الطفل جرحني لسبب، والقرد عبر الرَّصَد لسبب. لا أظننا غير متورطين في صراع الشيطانين يا صاحبي.

طرقت لينا على المنضدة أمام حسن ليفيق من شروده وينظر إلينا مستنكرًا.

- ما بك؟

- ما خطبكم؟! تسألونني كل خمس دقائق عما بي؟

دفع المقعد وقام إلى الخارج يدور كالأسد الحبيس على الرصيف المقابل. قال مهاب:

- سأخرج له.

- انتظر.. دعه يُخرج غضبه..

- أستاذ مهاب، باشمهندس لاشين، أقترح أن آخذ حسن في جولة في المدينة بينما تنتهيان من قضيتكما. لا أظن التعرض لكل هذه الضغوط محبذًا لمن هم في سنه وظروفه. آه.. وأنا أعرف ظروف حسن من الكتب وبرنامج بعد منتصف الليل، إن كنتما تتساءلان.

شكرتها على اهتمامها ورفضت أن يبتعد حسن عنا، فرغم كل شيء ثمة صلة بينه وبين جبر، ولو أراد الوصول إليه لهدد سلامته وسلامتها معًا. ودّعتها وخرجنا نعبر الشارع إلى حيث يقف حسن، فلم نجد له أثرًا.

***

-٢-

لكم أن تتوقعوا أن هاتفه قد أغلِق. زمجرت وسببت وضرب الحوائط واستجديت شياطيني أن تفعل شيئًا، فلم تُجبني. ظل مهاب يجوب الشوارع بالسيارة ولينا معنا منشغلة في كتابة رسائل على واتساب.. ماذا تفعل هي الأخرى؟!

ليست هذه المرة الأولى التي يضيع فيها حسن منا. الخبر الجيد أنه ينجو في كل مرة، الخبر السيئ أنه مُستهدف.

- لن نستطيع إبلاغ الشرطة.

هتف مهاب من بين أسنانه:

- ماذا لو أبلغنا؟! سنُسجن؟ فلنُسجن أو نُعدم حتى.. لا سبيل للعثور عليه سوى إبلاغ الشرطة.

قالت لينا بصوتها الهادئ المتعقل:

- لن تجده الشرطة لو أن جبر اختطفه. هل ستخبرهم أنكم تسللتم إلى المملكة لمواجهة شياطين؟! أرى أن نعود إلى المخيم.

أوقف مهاب السيارة بغتة وهتف فيها:

- انزلي هنا. الوضع خطر.

نزلت لينا في ذعر من نظرة مهاب الحادة الغاضبة. بمجرد أن لمست قدمها الرصيف انطلق مهاب يقطع الشوارع مسترشدًا بخرائط جوجل إلى حيث المخيم.

لم يخطر ببالي أي شيء سوى رد فعل سهير لو فقدناه..

-٣-

ترجّل مهاب وتركني كسيحًا في السيارة. راح يسأل الناس عن سعدون حتى وجده. أمسكه من كوعه حتى رماه في مقعد السيارة الخلفي وأغلق الأقفال.

- ماذا يحدث؟ ماذا تريدون مني؟!

تجمّع الغجر حول السيارة يراقبون ما يحدث، فصاح فيه مهاب:

- حسن مفقود! اطلب من هؤلاء الابتعاد!

فتح الغجري النافذة وقال شيئًا بلغتهم، فابتعدوا في شك إلا من عيون الأطفال المحدقة إلينا.

- كيف اختفى؟

- اختفى! هذا كل شيء. بينه وبين الشيطان جبر صلة تخاطر ما، وجبر هو المتسبب في كوابيس أطفالكم. هذا الشيطان يخطط لشيء.

حكيت له ما عرفت من لينا عن أمر العُزى ومعبدها، فاسودّ وجه الرجل وراح يحدق في حيرة إلى المجلات والكتب التي جلس فوقها فافترشت أرضية السيارة. لمحت شيئًا، فالتقطت أحد كتب الجيب المفتوحة لأرى عبارات معينة شبه ممحوة كأن أحدهم مرر إصبعه عليها مرات حتى تلطّخ الحبر. أدرت جسدي والتقطت كتابًا آخر لأرى فيه عبارات وكلمات مظللة بنفس الطريقة. جمعت الكتب أمامي وأنا أخبرهم بما لاحظت. أشار سعدون إلى كتاب محترق الحواف، رواية

أبناء الريح لكاتبة تُدعى ليلى الأطرش(4). قال مهاب:

- هذه رواية طلبها جبر قبل شهرين تقريبًا، تتكلم عن أطفال الملاجئ أو شيء من هذا القبيل. اللعين كان يخطط للأمر منذ زمن..

فتحت الرواية لأجد عبارة على الصفحة الأولى بقلم رصاص: «عمرو عمارة قابيل»، ثم أرقامًا مكتوبة عند أطراف صفحاتها على غرار ١١-٢٣، و٢- ٣٢. هذه شيفرة معينة لا أعرف معناها. أم تراها تعويذة؟ سألت مهاب إن كان هذا خط أخيه فنفى، بَدَهِيٌّ أن الرواية لم تكن في حوزته وقتما كان عمرو حيًا. أخرج مهاب دفترًا صغيرًا من جيبه ونقل إليه الأرقام بترتيب ظهورها على الصفحات. لاحظنا أن الرقم الثاني لا يجاوز الثمانين، ومرتين يتكرر رقم ٨٠ وبين قوسين جواره (١) أو (٢).

أمسك مهاب أحد كتب الجيب التي لاحظنا فيها الأسطر المميزة. أغلق غلافها وصمت لحظات ثم هتف:

- كتيبات ما وراء الطبيعة.. آخر عددين منها كانا يحملان رقمي ٨٠ (١) و٨٠ (٢). هذه هي السلسلة المفضلة لدى حسن وعمرو.. والسلسلة الوحيدة الذي يعرف جبر أن حسن سيقرؤها للمرة الألف هربًا من الضغط النفسي.

معنا الآن مفتاح الشيفرة. رقم الصفحة ورقم العدد مع ترتيب الصفحات. ما الذي ضمن لجبر أن حسن سيلاحظ رواية أبناء الريح؟ وسوسته المستمرة بالطبع بالأغنية الغجرية. ما الذي ضمن له أن يُكملها؟ اسم عمرو على الصفحة الأولى بالطبع.

قال سعدون:

- لا أعرف كيف سأساعدكم، فأنا لا أقرأ ولا أكتب، وقد أخبرتكم بكل ما أعرف.

قلت له وأنا أمسك الكتب لمهاب لينقل منها:

- اتركنا نقيم في المخيم. أخبرهم بالخطر الذي يحيق بهم لعل أحدًا لديه معلومة يكتمها. يجب أن نراقب القبر والمعليَّة جيدًا ونمنع أطفالكم من الخروج مؤقتًا.

- هذا خراب بيوت! ومَن سيعمل؟!

- تحملوا الظرف الطارئ! ألا تعبئون بالخطر على أطفالكم؟

- قلت لك أن الخطر قائم وأمر واقع. الأطفال يخرجون ولا ضامن لعودتهم سواء في وجود شياطين أو في عدم وجودهم.

- إذًا أعلن الحقيقة ولهم القرار.

خرج سعدون إلى الناس ليجمعهم. رأيت مهاب يجهّز سلاح مهدي الناري ويطلب مني الاستعداد.

- نحن لا نفهم ماذا يقول. استعد ولو على سبيل الحرص.

تحدَّث سعدون والناس حوله، الأطفال يحدقون إلينا، وسرعان ما اجتمع على وجهينا عشرات الأزواج من الأعين. أشار لنا سعدون أن نأتي، فترجلنا ونحن نخفي أسلحتنا داخل ملابسنا.

قدّمنا إلى الرجل ذي البندقية وعرفنا أنه أحد حكماء القبيلة

ويُدعى جمال مشاري. صرف الرجل الناس وإن أبقى على عدد من الرجال نادى عليهم بالاسم، ولمحت أكثر من واحد منهم مسلحًا بخناجر وسكاكين. تكلم باللهجة الأردنية قائلًا:

- نعرف أن هناك شياطين هنا، وقد تحرَّكت لسبب نجهله. ما الذي يضمن أنكم لستم منهم، و أن وجودكم خطة لخداعنا خاصة وأنكم جئتم بصبحة شيطان طليق الآن؟

- لا ضامن. يمكنك أن تمضي الأيام القادمة في قراءة الكتب التي كتبتها طيلة الثلاث أعوام الماضية عن حياتي لتعرف أبعاد الموضوع، ويمكنك أن تثق بنا أو تعاملنا بحرص. أنتم سبعة ونحن اثنان منهما كسيح.

تبادل الرجال عبارات هامسة، ثم هز مشاري رأسه موافقًا. أدخلنا السيارة إلى مكان قريب من المخيم وبداية الطريق للمعليَّة، وقسَّمنا المهام، إذ سيذهب مهاب مع مشاري إلى المعلية ومعهما رجلان بحثًا عن أي أثر لحسن أو جبر، وسيذهب رجلان إلى القبر، وسيظل معي سعدون ورجلان آخران لمراقبة المخيم.

مكثت في السيارة أكمل نقل العبارات حسب الشيفرة. روايات ما وراء الطبيعة تتيح لجبر حرية استخدام عبارات تمت لعالم الرعب. بدأت الرسالة تتشكل أمامي، وعرفت أن الأمر أخطر مما نتوقع.

اتصل بي مهاب يخبرني أنهم لم يجدوا أثرًا لشيء، وعاد الرجلان من القبر بخُفي حنين. قرب العصر اجتمعنا مكفهري الوجوه.. لا أثر لحسن ولا لجبر.

قلت لهم وأنا أجلس على مقعد السيارة وأدلي قدماي خارجها:

- الرسالة التي أرسلها جبر لحسن تذكِّره بعمرو –صديق عمره- وكيف كان وحيدًا منبوذًا مثله، ووجَّهه لقراءة أبناء الريح، ثم استخدم جبر أسماء الشياطين في الروايات لصياغة تعويذة معروفة تُمكِّنه من السيطرة على عقل حسن.

قلت لمهاب:

- لن تعمل هذه التعويذة من دون وجود شياطين من العبيد.

- ربما نجح في استمالة أحد أعوان الشيطانة أو الشيطان الموجود هنا؟

- يجوز.

- لماذا لم يوسوس لحسن بالتعويذة مباشرة؟

- بسبب الارتباط البصري لبعض التعاويذ. ثمة تعاويذ تُسمع، وأخرى تُقرأ أو تُبتلع. أظنك تتذكر كتاب عهد الدجالين وكيف كانت القراءة منه مباشرة ثم حرق صفحاته مهمة لإتمام الطقس.

همس مهاب:

- بل أظنها طبيعة جبر. الوسوسة للأطفال عن طريق الكتب والألعاب والأفلام. لا أعرف.. أشعر بهذا.. ربما الأمرين معًا.

جيء لنا بصحاف طعام عرفت أن اسمه «مفتول» عبارة عن كريات من العجين تشبه أطباقًا كثيرة مشابهة في مصر، ومعها مرق ولحم

وحمص. أكلنا في صمت وكل منا يحمل همومه. صليت ومهاب ما فاتنا من صلوات، وإن لم يصلِ كل من كان معنا. عرفت لاحقًا من لينا أنهم مسلمون لكن أغلبهم لا يمارس شعائر الإسلام ولا يلتزم بتعاليمه.

بعد الغداء شعرنا بتثاقل، فعرض علينا مشاري النوم في إحدى الخيام، لكننا رفضنا ودخلنا سيارتي نقاوم النوم قدر استطاعتنا. دسست حقيبتي بعيدًا عن الأعين في المخبأ الذي أعددته أسفل المقعد لهذا الغرض وجلست أفكر في تعويذة جبر.

لا أعرف كم مر من الوقت حتى فتحت عينيَّ على ظلام وصوت هاتف مهاب يرن بلا انقطاع. أجفلت ونظرت إلى جواري لأرى مهاب نائمًا لا يشعر بشيء، وكلانا في المقعد الخلفي.

- آلو.. لينا؟ أعتقد أننا غفونا فلم نشعر بالهاتف..

قاطعتني بصوت حاد هاتفة:

- لاشين.. الساعة الآن العاشرة مساء. أنتما مخدَّران! وضعوا لكما مخدرًا في الطعام!

هززت مهاب فغمغم شيئًا ثم انتبه. مفتاح السيارة ليس في مكانه. أزرار فتح الأقفال يدويًا مهشمة. حاولت فتح الباب دون جدوى. نحن حبيسان داخل السيارة.

- لاشين.. ماذا أفعل؟ هل أبلغ الشرطة؟

- كيف عرفتِ بما حدث؟ أجيبي مباشرة!

- سهير.. سهير كانت تتابعكم عبر حجري الأوبسيديان. لم تكن تنام

تقريبًا قلقًا على حسن. المشكلة أنها لا تعرف عنه شيئًا منذ اختفى. آخر ما رأته أنه كان يعدو متجهًا إلى المخيم. كلما اقترب أكثر خفتت رؤيتها لها.

- سهير؟ لماذا لم تتدخل مبكرًا؟!

- سهير لن تستطيع معرفة ما يحدث في كل مكان في نفس الوقت! الأمر صعب! سهير تكاد تفقد بصرها يا لاشين من فرط استخدام الحجرين.

- بصرها؟

هزَّني مهاب لأفيق، ثم أخذ الهاتف مني يفتح مكبر الصوت ويكلم لينا.

- أين حسن الآن؟

- سهير لا تعرف. لكن يبدو أنه في مكان ما في المخيم أو قربه.

- إذًا جبر لم يخطفه.

- لا.

- سهير هي من أخبرتك بإصابة لاشين وأمر العظام التي وجدناها ولم نُظهرها في الصور؟

- أجل. ماذا أفعل الآن؟!

- تواصلي معها واتصلي بنا لو جد جديد.

هتفت أنا:

- اطلبي منها أن تكف عن استخدام الحجرين اللعينين! هذه مسؤوليتنا! هذا أمر يا لينا!

أعتقد أن لينا أخيرًا شعرت بالذعر فأغلقت الخط.

- أين مسدسك؟

لقد سرقوه..

تجمَّدت للحظات لا شيء في عقلي سوى سهير، فأزاح مهاب ساقيّ وأخرج حقيبتي وراح يفتش فيها عن شيء. حاول كسر زجاج النافذة بكعب أحد أسلحة مهدي النارية، فاستدرت أنا أخلع مسند مقعدي وأدس الطرفين الحديديين داخل الفجوة في الباب، التي يخرج منها زجاج النافذة، ثم أجذبه بقوة نحوي مرات على أمل أن ينكسر.

الأمور تبدو أسهل في الأفلام.. أسهل بما لا يُقاس..

نحن أحمقان.. معنا سلاح ناري!

سألني مهاب:

- ألا توجد طريقة لتشغيل هذه السيارة دون مفاتيح؟

- للأسف.. السيارات الحديثة لا تعمل دون مفتاحها.. لكن لا حاجة لمفتاح..

أخذت منه سلاح مهدي وصوبته نحو الواجهة الأمامية وأطلقت الرصاص. أصابنا الصوت بالصمم لدقائق بينما مهاب ينتقل إلى

المقعد الأمامي ويدفع الزجاج بساقيه حتى اتسعت فجوة الرصاصة وتفتت الزجاج للخارج. زحف مهاب خارجًا ثم مد لي ذراعيه فناولته عكازيّ وحقيبتي، وتركته يجذبني إلى الخارج.

على ضوء كشاف هاتفي تفحصت المكان حولنا. الظلام دامس ولا يضيء الكشاف سوى عدة أمتار، لكننا لسنا في المخيم. ثمة نار على ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبًا. يبدو أنها فوق تبة أو..

قال مهاب:

- أعقد أننا قرب المعليَّة.

سمعنا صوت إطلاق نار من خلفنا. استعد مهاب حاملًا البندقية القصيرة المزخرفة بعدما تحقق من وجود رصاصات كافية في خزانتها، ودس خزانة أخرى في جيبه. لست مسلحًا بشيء ولا يمكنني فعل أي شيء خارق. كنت أظن أن حسن سيكون عبئًا على الرحلة، لكني الآن العبء الحقيقي. سرنا بضعة أمتار حتى سمعنا خطوات تقترب منا بسرعة. رفع مهاب السلاح وأنا أصوب كشاف هاتفي نحو مصدر الصوت.

- سعدون؟

- حمدًا لله أنكما استطعتما الهرب. كنت آتيًا لتهريبكما. لم أستطع العودة إليكما مبكرًا كي لا يرتابوا بي، ولم أكن أعرف أنهم خططوا لتخديركما.

سألته في عصبية:

- ما الذي يحدث؟

- الشاب الصغير الذي كان معكما.. حسن؟ أطفال ومراهقو القبيلة يتبعونه مسلحين بقطع الفخار المكسور والصفيح والسكاكين والحجارة. هل تتخيل أننا عاجزين عن مواجهتهم؟! هم يقفزون علينا وينحرون أعناقنا كأنهم لا يعرفوننا.

- متى كان هذا؟

- منذ ساعة تقريبًا.. الوضع مشتعل في المعليَّة الآن. لا أعرف ماذا يحدث! هيا معي..

سرنا خلفه بأقصى سرعة سمحت بها إصابتي. كلما اقتربنا من المعليَّة سمعت أصواتًا لم أتخيل اجتماعها.. ضحكات أطفال.. صرخات قرود.. صوت لم أسمعه منذ عشرات الأعوام، صيحات الوشق..

ثم همسات شيطانية تتردد في عقلي فقط ولا يسمعها غيري..

«لأجل (الكتُبا)..

لأجل الأم الريح، الأم الشمس..

لأجل حكاياتها التي نسجت لنا حياة..»

« لأجل العم الأكبر منذ آلاف السنين..

لأجل مَن لم يتخلَّ عنا أمواتًا وغير أحياء..»

قلت لمهاب:

- أسمع همسات شياطين..

نقلت له ما سمعت، وأخبرته أن شياطيني أصابها الخرس التام. الآن نرى أفواج الأطفال الضاحكين يتقافزون حول النار المضرمة، ورجال الغجر المسلحين يصارعون قِردة ممسوخة تقضم أعناقهم وتخمش بطونهم حتى تبقرها.

صاح سعدون:

- ماذا سنفعل؟ ألست ساحرًا؟!

لم أجد في حوزتي ما يمكن استخدامه سوى حزام الرَّصد، لكن ما فائدته إن كنات القرود قادرة على عبوره؟

- حسن هناك!

نظرت إلى حيث أشار مهاب، واقتربنا رغم كل شيء حتى تبيَّنا أن حسن يندفع عدوًا نحو جبر الواقف وسط اللهب المشتعل، يبتسم ويفتح ذراعيه له..

- حسن!

ناديت، فالتفت نحوي وتوقف ثواني، ثم ركع أمام جبر يطفئ النيران بالتراب.

- حسن!

هتف مهاب:

- لن يلتفت لك..

صوَّب مهاب سلاح مهدي الذي أعرف أنه استطاع قتل الجنية إلفام ملكة أرض الاحتمالات من قبل(5)، وأطلق الرصاص. لم تصب جبر بالطبع، فالمسافة كبيرة ومهاب ليس بهذه البراعة مع الأسلحة عمومًا. أطلق مرة أخرى فخاب التصويب. قال سعدون:

- اقتربا أكثر..

انطفأت النار تقريبًا، فاندفع حسن نحو جبر يعانقه. ضحك جبر وهو يربِّت على ظهر حسن ويقول له شيئًا. أخرج حسن من جيبه الخنجر المزدوج المفقود ورفع يده نحو وجه جبر.

أطلق مهاب الرصاص مرة أخرى، ومن حيث لا ندري اندفعت القرود نحونا وتركت ما تبقى من رجال الغجر جرحى. انطلق سعدون يجري إلى ما خلف المعليَّة بينما القرود تحملني أنا بالذات.

يضربها مهاب بكعب السلاح فيسقط واحد أو اثنان، لكنهم بالعشرات في كل مكان، فرواتهم بنية مخضرة نتنة الرائحة.. أسمع جبر يقول لي بصوت سمعته في أذنيّ مباشرة، صوت عذب رقيق:

- «أنا العم الأكبر يا آدم، حينما كنت وحدك راقبتك وحميتك. أنا العم الأكبر الذي لم يتخلَّ عن طفل وحيد.. انظر إلى الحقيقة يا آدم.. ألا تراها؟ ألا ترى البشر الذين تخلوا عن أطفالهم؟ ألا ترى الشر الذي يفوق ما تتصورنه عن شر الشياطين؟ لست الشيطان الذي تتصوره يا آدم، أنا المتمرد المغضوب عليه الذي لا يريده أحد.. مثلك.. مثل حسن.. مثل أبناء الريح الذين مسختهم الكُتبا قِردةً. هل ترى الحقيقة؟ لست كمثل الشياطين في شيء.. أنا في معسكرك يا آدم..

دائمًا كنت في معسكر المنبوذين..»

القردة تحملني إلى ما وراء المعليَّة. يغيب حسن عن عينيَّ لكني أدعو الله ألا يكون يفعل ما أظنه يفعله. أنادي بأعلى صوتي:

-مهاب! احمِ حسن.. امنعه مما يفعل.

صوت الرصاص يتردد.. أسلحة رجال الغجر تدوي مع سلاح مهاب.

-٤-

هل ما أسمع صوت صافرات سيارات الشرطة؟

اللعنة يا لينا.. لكن.. أليس السجن أفضل من القتل؟ أفضل من تدمير قبيلة؟ أفضل من شيطانين هاربين؟ هل السجن أفضل حقًا؟ لا أعرف..

القرود تلقيني جوار المكعب الحجري خلف النخلتين. أنظر إلى العينين البدائيتين المحفورتين على الصخر.. فترمشان.

أجفل. أنقلب على ظهري لأرى الوشق يتشممني. أعتدل جالسًا بسرعة فأراها.. طويلة ذات وجه شاحب وأنف قصير للغاية، عيناها واسعتان بلون الحجارة، شعرها منفوش مسترسل تجره خلفها، تربط في أطرافه عظام سوداء.

- «أنت آدم لاشين إذًا؟ لم أتصور في حياتي الأزلية الأبدية أنك ستأتيني بقدميك..»

فمها مغلق كأنه منحوت في رخام، لكني أسمع صوتها الشيطاني. تضحك وهي تركل قدميَّ بقدم ذات أظفار كمخالب النمور.

- «سمعت عنك.. سمعت عما فعلته بشيطان الشجرة، وبعشرات الشياطين التي تتمنى تمزيقك وبعثك وتمزيقك مرات بلا حصر. أغلقت معابرنا.. دمَّرت عهود الدجالين.. أزلت الحواجز بين العوالم بصلفك وغرورك يا آدم.. وها أنت الآن تحت قدمي الكُتبا! الكُتبا العظيمة التي لم تُعبَد.. التي لم تجد من يتذكرها كأنها.. كأنها ابنة

الريح؟»

تضحك مرة أخرى.. أرى سعدون خلفها والخنجر في يده.. يتحرك ببطء ولا ينظر نحوي. سألتها:

- ما أنتِ؟ معبودة شيطانية من معبودات الوثنيين العرب؟

- «أنا الكُتبا.. شيطانة الكتب والحساب والتنجيم.. أنا الأم المقدسة للأبناء العاقين. عبد أبناء آدم شقيقاتي اللعينات، اللات والعُزى ومناة، ولم يرني أحد كأنني غير موجودة! أغرقوهن بدماء القرابين فصرن أقوى، وأنا صرت أضعف وأكثر غضبًا. ماذا فعلت كي لا أُرى؟ لم أفعل شيئًا، لكن اللعين جبر فعل.. جبر الشيطان الضعيف ذو الرتبة الوضيعة تسلّق على كتفيّ حتى صار هو إله الأطفال الذين يعبدونه من دون وعي. يقدمون له قرابين من أرواحهم العفنة دون أن يعرفوا. أنا شيطانة القصص، الأم المقدسة لا جبر الخسيس الذي تسلل خلف صفوف المعبودات حتى تقدّم الجميع! وحين نُفي أخيرًا عدت.. لكنك أيها الغبي أعدته لعالمكم مرة أخرى! لا أطيق الانتظار حتى رؤية الجميع يرفعني إلى مراتب شقيقاتي لأنني أنا التي جلبت لهم جبر المتمرد ولاشين.. الأول والأخير»

اللعنة.. إذًا ثمة ثأر بينها بين جبر والحقير لم يخبرنا. يبدو أنها كانت المختصة بالأطفال وإفسادهم بالحكايات لكنها كانت فاشلة لسبب ما، فجاء جبر ولعبها بذكاء.. كل طفل منبوذ وحيد يعبد جبر من دون أن يشعر. يا الله.. حتى عبادة الشياطين تطورت!

- هيا إذًا..

لم أكمل عبارتي حتى تشنج جسدي وضربني ألم شنيع..

انفجرت الدماء من جسدي فتراجعت الكُتبا والوشق إلى الخلف. لا أرى سعدون...

***

الفصل الثالث

هذا الفصل لم أره، لكني عرفته لاحقًا، فوجب حكيه في سياقه.

(لاشين)

-١-

مهاب يتقدم منحنيًا نحو المذبح، تغطي تسلله رصاصات من تبقى من الغجر. الأطفال يجتمعون حول جبر، يرقصون كأنهم في عيد، لا يعون شيئًا مما يجري حولهم.

رأى مهاب أخيرًا ما كنت أحذره منه. حسن يحفر على جبين جبر -على جبين جسده العائل البشري- رمز جذب الشياطين. تذكَّر الثغرة التي فكرنا فيها، جبر لن يمكنه إتمام تعويذته للسيطرة على كامل الأطفال من دون شياطين خادمة..

اللعين يستقطب شياطيني، شياطيني الألعن أدركت منذ البداية أن جسد جبر البشري الذي تحمَّله آلاف السنوات أفضل من جسدي.

خيانة لا أعرف لماذا لم أتوقعها. لماذا وثقت في شياطيني من الأساس؟ لأنها تحميني؟ ماذا لو وجدت طريقة للفرار؟ ستبيعني حتمًا!

يصعد مهاب الدرجات، فينظر نحوه جبر ووجهه غارق في الدماء:

- مهاب! منبوذ آخر! تعالَ يا صاحبي، يبدو أنني سأوسع مجال عملي ولن أقتصر على الأطفال.

ثم رفع قبضته عاليًا كأنه تمثال الحرية وهتف ضاحكًا:

- هلموا إليَّ أيها المتعبون فأنا أحمل مشعل الحرية!

أطلق مهاب الرصاص نحوه، لكنه هوى على ركبتيه فجأة، وخنجر

مغروس في ظهره. هدر بصوت شيطاني أرجف الرجال فتراجعوا وفرَّ بعضهم. انحنى حسن يحاول انتزاع الخنجر وهو يبكي ويرجوه ألا يرحل.

صعد مهاب الدرجات سريعًا وأبعد حسن عن جبر، لكن حسن رفع الخنجر في وجهه ونظر إليه بعينين لا تريانه.

- معذرة يا أخي..

دفع مهاب حسن حتى مسَّ ظهره المدرج الحجري، ثم أخذ منه الخنجر. نظر خلفه ليرى سعدون يصعد التبة من خلف جبر ويبحث عن الخنجر ليجده في يد مهاب. لم يكترث، وفتح مرطبان الأسنان ونثر منه على الأرض وهو يهتف:

- المجد للكُتبا!

تراجع أطفال الغجر الذين كان يسيطر عليهم جبر وتسلقوا المدرجات خوفًا من عشرات القرود التي تنبت من الأرض وتحيط بجبر فلم يعد مرئي.

صوَّب مهاب سلاحه نحو سعدون وضغط الزناد، لكن شيئًا لم ينطلق. انحنى كالثور ودفع رأسه في بطنه، فهوى الاثنان فوقي يصطرعان.

أشعر أنني.. أفضل؟ لا أعرف.. لم تنتقل شياطيني لجبر، بل أصبحت مجبرة على إصلاح جسدي بأقصى سرعة وإلا فقدت العائل.

انتشلت الخنجر من جيب مهاب بينما يضرب هو رأس سعدون إلى الحجر المربع. أعتقد أن سعدون أصاب كتف مهاب بشيء ما، الدم يغمر قميصه.

سيل من القردة تنزل التبة خلفي. الكُتبا تتراجع وتحتمي خلف وشقها. شكلها المشوَّه يثير غضبي. قمت واقفًا للمرة الأولى منذ أيام، ولم يكن في ذهني سوى عبارة واحدة سمعتها من لينا، صرخت بها:

- يا كُتبا كفرانك لا سبحانك..

ضربتها بالخنجر وأنا أحيطها بذراعي. لا حاجة لي بشياطيني اليوم. الإيمان المطلق هو القوة لا الشياطين الغادرة.

صرخت وأنشب وَشَقُها أنيابه في ساقي. طعنتها مرة أخرى وأخرى. أصبح الخنجر زلقًا في يدي فسقط، لكني لم أتخلَّ عن جسدها المقيت. دسست أصابعي في جروحها فصرخت. صوتها الشيطاني يمزق طبلتي أذني.

أتي مهاب من خلفي وراح يضرب وجهها بالبندقية حتى تهشم تمامًا. حملت الصخرة المنقوش عليها وجهها الدميم وضربت رأسها ضربة أطارته فانفجر الدم العفن الأسود يغرقنا.

دماء سعدون تسيل في مجرى الدماء المتعرج القديم الذي حفرته مئات الأضحيات البشرية عبر السنوات.

القرود تتحلل.. تتساقط.. لا يتبقى منها سوى هياكل أطفال سوداء منقوشة.

يطل حسن علينا من أعلى ويصيح:

- النجدة؟! أين أنا؟ ماذا يحدث؟!

***

-٢-

الصباح..

أخيرًا شيء سوى عتمة الروح والغربة عن النفس..

ناولني مشاري مفتاح سيارتي وهو يقول:

- لا تؤاخذنا. لم يكن من حل أمامنا كي نأمن شركما سوى حبسكما في السيارة في مكان بعيد عن المخيم. كيف تتوقع منا أن نثق في شياطين؟

- أتفهم موقفكم. أتفهمه أكثر مما قد تتصور.

كيف أثق في شياطين؟ مهما بدت المصالح مشتركة، فالشياطين أعداء البشر منذ الخليقة ولن يتغير هذا الوضع أبدًا. سألته:

- هل شككتم في أن سعدون هذا سادِن الكُتبا من قبل؟

- أبدًا. الرجل بيننا منذ وُلدنا، ولم نرَ منه سوءًا سوى أنه.. مختل قليلًا؟ المعليّة في هذا المكان منذ قرون لا يعلم عددها سوى الله، لكن الحكايات تنتقل من جيل إلى جيل عن الهياكل السوداء. لم نرها بأعيننا ولم نعرف سوى أنها هياكل صغار الجن إلا هذه الأيام. اللعينة كانت تحوّل أطفالنا إلى مُسَخ في خدمتها بدعوى أنها أمهم..

غمغم حسن:

- هل يمكن أن أقول شيئًا؟ أرجو ألا يُغضبك كلامي.. لكني جرَّبت هذا الشعور. أي طفل لا يشعر أنه مهم لذاته لا لمنفعه تُجنى من وراءه

سينقاد إلى أي كيان يغريه بالانتماء. أصدقاء.. عائلة بديلة.. عصابة.. جماعات متطرفة.. شياطين.. رجاء خاص مني، حاولوا أن تُشعروا أطفالكم أنكم تريدونهم هم، لا ما يجلبون من مال.

هز الرجل رأسه في أسف ولم يُعلّق.

وصلت الشرطة وكنا خلف المعليّة أنا ومهاب وحسن وسعدون. انشغلوا بالطبع بالأطفال الهائمين والقتيل ذي النقش على جبينه وجثث الغجر والهياكل السوداء. لجأنا إلى الصحراء واختبأنا حتى العصر تقريبًا، ثم عُدنا متسللين إلى المخيم لنجد مشاري وبعض الرجال الذين فرغت الشرطة من التحقيق معهم مشغولين في دفن القتلى وتطبيب المصابين.

قال مشاري وهو يقودنا إلى عمق المخيم ويكرر أسفه لنقل سيارتنا إلى خارج المخيم، فقد صادرتها الشرطة:

- لا تؤاخذني رجاء. كنا خائفين.

- لا بأس. المشكلة الوحيدة هي أنني لن أستطيع العودة إلى مصر ولا شراء سيارة من هنا.

- هل تصلح هذه؟

أشار الرجل إلى سيارة فورد نصف نقل عتيقة، صدئة، تفوح منها رائحة القمامة.

- ليس لدينا سيارات كما لا بد أنك تعرف، لكن هذه نستخدمها لنقل القمامة إلى المعسكر لفرزها. هذا أقل اعتذار أقدمه لك، وأقل

شكر على ما قدمتموه لنا. ما كنا لنتخلص من هذه المصيبة لولا مساعدتكم.

أخذت منه مفتاح السيارة وركبنا إلى قرب المعبر حيث التقينا لينا للمرة الأخيرة. أعطتنا صندوقًا حافظًا للحرارة به مأكولات ومشروبات للرحلة وقالت مودعة:

- طمئنوني حين تصلون، واعذروني لو اتصالي بالشرطة جاء متأخرًا، فأنا وسهير لم نكن نعرف أي الشرَّين أخف، مقتلكم أم سجنكم.

- اتصالك بالشرطة جاء في الوقت المناسب تمامًا، كما في الأفلام.

ضحكت وودعتنا مرة أخرى، وشدَّت على كف حسن وهي تكرر دعوتها لرحلة في الأردن عندما يستطيع استخراج أوراق سفر رسمية.

ودَّعت الأردن اللطيفة التي أحببتها، وتمنيت لو أسافر مع حسن في رحلة سياحية بلا هدف سوى الاستمتاع.. كعائلة واحدة.

***

-٣-

مر قرابة أسبوعين منذ عودتنا. فقدنا هيكل القرد العظمي الذي كان في سيارتي، ولا أعرف ما حدث في الأمر مع الشرطة، فما نُشر في الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي لم يكن سوى أخبار عن إلقاء القبض على مجموعة غجر يقيمون طقوسًا وثنية لعبادة إلهة قديمة، وزعم الغجر أن هذه الإلهة شيطانة تحول أطفالهم إلى قردة، وأن هناك شيطانًا آخر أغوى باقي أطفالهم ليساعدوه على شيء ما. وجدت الشرطة سيارة دفع رباعي مصرية ليس بها أوراق شخصية، واجهتها الأمامية مكسورة وأثر دماء على مقدمتها، ويبدو أنه كان بها أطفال وهو استنتاج توصلوا إليه من الكتب فيها، وجاري التواصل مع السلطات المصرية للتعرف على صاحبها.

أصر الغجر على روايتهم، واعتقل عددٌ منهم لحيازته أسلحة غير مرخصة وأسلحة بيضاء، ولم تذكر الأخبار شيئًا عن الهياكل السوداء أو عثورهم على جثة الكُتبا أو الوشق.

قال لي مهاب ونحن جالسان نستمع إلى ما يلتقط مايكروفون جده من غمغمات من عصور وأبعاد مختلفة:

- أريد أن أقول لك شيئًا لكن لا تغضب.

ضحك ثم أضاف:

- ذكَّرتني ونحن في الأردن بفيلم «السيَّاف الأكتع»(6)..

ضحكت وقد تذكرت فيلم الأكشن القديم الذي يحكي عنه. بحث

حسن عن الفيلم في ثوان وهو جالس على الأريكة الجلدية أمامنا، فاهتز كتفاه ضحكًا على البوستر القديم البدائي.

فجأة قال:

- وصلتني رسالة من جبر أمس..

رفعت حاجباي واحمر وجه مهاب، فأردف حسن:

- حساب جديد على فيسبوك يحمل صورة جبر، وفي المعلومات أسفل الحساب مذكور أنه مذيع «بودكاست لقصص الأطفال». أرسل لي الحساب رسالة فيها صورة لعمرو لا وجود لها سوى على هاتفي المحمول.

غمغمت:

- جبر عاد إلى الإنترنت.. حسن، تخلص من الهاتف وسأشتري لك غيره.

- لا بأس. لن أرد عليه..

لا يتذكر حسن ما حدث منذ سيطر عليه جبر، ولا يتذكر كيف ارتمى بين ذراعيه ولا كيف بكى عندما أصيب. أتمنى أن تزول هذه الذكريات تمامًا من الوجود كي أطمئن إلى أن حسن تحرر بالكامل. سأسرق منه الهاتف في أقرب فرصة وأدمره.

لن أثق في شيطان ولا بقايا شيطان.

للمرة المليون أنظر إلى هاتفي أتحقق من الرسائل، فأفلت قلبي

دقتين عندما رأيت علامة رسائل واتساب. لقد أرسلت لسهير رسالة منذ أسبوعين أسألها فيها عن صحتها وأشكرها، لكنها لم تُجبني. على العموم مهاب شكرها واطمأن على أنها بخير، وصحبها إلى الطبيب لتغيير قياس عويناتها الطبية.

فتحت الرسالة فوجدت لينا قد أرسلت لي صورة مع رسالة صوتية.

- «باشمهندس لاشين، مساء الخير. لن تصدق ما رأيت أمس في ميدان قرب منزلي. هذا الطفل في الصورة كان يبيع شيئًا. تذكرته من ملامحه المميزة. الطفل الغجري الذي جرحك يا لاشين، أليس كذلك؟ اقترب من سيارتي ونظر لي، ورأيت حول عنقه قلادة من أسنان سوداء. بالنسبة للكتابة على العظام، فلم يفهم معناها أحد. هي مجرد كلمات بلا معنى، أما عن الكُتبا، فهي إلهة وثنية لا يوجد ذكر لها إلا على حجر في جبال رَم عُثر عليه عام ١٩٥٩، وعلى نقش آخر على طريق البتراء مكتوب فيه «أمام الكُتبا، هذه الإلهة تحديدًا». النقش الأول تضمن حفرًا لصورتها إلى جوار الُعزى التي تظهر كامرأة معها وشق. يبدو أن الكُتبا استولت على وشق أختها في مرحلة ما. أخبرني المختص بالتاريخ النبطي أن في مصر معبدًا للكُتبا في سيناء مبنيًا على الطراز المصري لكنه طُمِس الآن. اندمجت الكُتبا كإلهة للكتابة والحكايات مع آلهة أخرى في العصر اليوناني. لا توجد معلومات بالعربية عن هذه الإلهة عمومًا، ولا توجد معلومات أكثر مما ذكرت لك. أعتقد أن جبر هرب لينفذ خطته منتهزًا الفرصة التي قدمها له القرد بعبوره الرَّصد، فسجنته الكُتبا بشكل ما واحتاج إلى

معونة الأطفال في حربه معها للوقوف أمام جيش القردة.»

نظر ثلاثتنا إلى صورة الطفل الباسم وتيقنا أنه هو. قال مهاب:

- الأسنان السوداء التي بذرها سعدون فأنبتت القردة.

- ماذا قد يكون هذا الطفل؟ سادِن آخر لمعبد الكُتبا؟ طفل رباه سعدون ليخلفه وأبقاه بعيدًا عن المخيم؟

- ربما.. هل نعود ونتحقق من الأمر؟ ربما يعيد الكُتبا مرة أخرى إلى عالمنا..

نظرت إلى عيني حسن المتحمستين وقلت:

- لن نذهب إلى أي مكان ما لم يحدث شيء يستدعي التحرك. لسنا في مسلسل تحقيقات ما ورائية يسعى أبطاله للغرائب بلا حذر.

لا أنكر أن دماء الكُتبا أعادت لشياطيني قوة غريبة لم تكن لديها قبل سفرنا. هم الآن صامتون خجِلون من خيانتهم، لكنهم عالجوني، لكن لا شكر لهم ولا حمد.

الحقيقة أنني –أنا لاشين- قتلت الكُتبا وأنا رجل عادي، برفقة رجل آخر عادي. يبدو أن الله خلقنا بهذا الضعف الظاهر لأنه الشكل الأقوى في مواجهة الشياطين..

رن هاتفي برسالة، فتحتها لأرى اسم سهير.

- «أنا بخير. لم أكن أرى جيدًا فلم أستطع قراءة رسالتك. لا تقلق»

لا أعرف ما الذي كان يثرثر فيه مهاب وحسن، ولا لماذا يضحكان

ومهاب يطوق كتفي حسن وينظر معه إلى هاتفه المحمول. لا بد أنهما يشاهدان فيلم السياف الأكتع بالفعل.

قبضت على الهاتف وأغمضت عينيّ ورأيتها في الستوديو تشاهد صور عمر يحمله أسامة على هاتفها المحمول وتبكي.

تراجعت على الفور عن مراقبتها وقمت مرتميًا على الأريكة ألف ذراعي حول حسن وأضحك على الفيلم..

وتبكي شياطيني..

---

(1) ظهر جبر لأول مرة في العدد الأول عهد الدجالين، ثم في الثالث: كاهنة الأوراس، ثم في الثامن: لعبة ناجورو حيث استغلنا ليعود إلى جسده البشري بعدما نفاه الشياطين إلى عالم الإنترنت، عقابًا له على تمرده المستمر.

(2) العدد السادس- جزيرة الضحاك

(3) ساحرة ذُكِرت بالتفصيل في الكتاب الثالث «كاهنة الأوراس» وتعيش منذ العصور الوسطى حتى الآن.

(4) الرواية حقيقية بالطبع، لماذا ألجأ إلى روايات خيالية والقصة كلها حدثت بالفعل؟ (لاشين)

(5) العدد العاشر- نوم العصاري

(6) The one armed swordsman

ترجموه في مصر إلى السياف الأكتع (لاشين)